ميليسا دا كوستا

# صانعة مكتبة النجوم

رواية

ترجمة
روز مخلوف

منشورات وسم

كل عام وأنت بخير

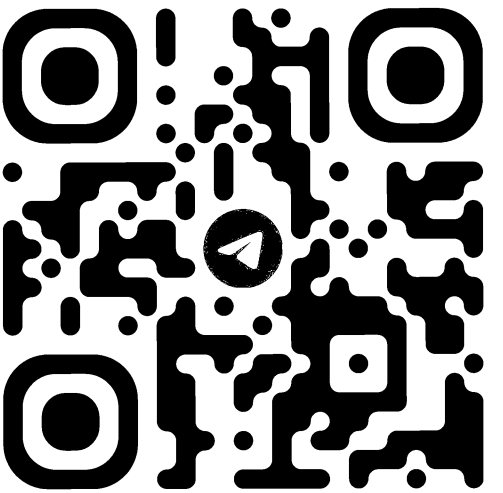

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

# صانعة النجوم

مكتبة
t.me/soramnqraa

اسم الكتاب: صانعة النجوم
اسم الكتاب الأصلي: La Faiseuse d'étoiles
اسم الكاتبة : ميليسا دا كوستا Mélissa Da Costa
ترجمة: روز مخلوف
الترقيم الدولي 978-1-961628-49-6 :(ISBN)
جميع الحقوق محفوظة ©
الطبعة الأولى: 2026

منشورات وسم

الكويت - العاصمة - القبلة - شارع فهد السالم
عمارة أسامة - الدور الأول س- مكتب رقم 26
إيميل wasm_publishing@hotmail.com
تصميم الغلاف: محمد إسلام @Medislamm
التنسيق الداخلي: ضياء فريد
© Le Livre de Poche - 2023, for the first edition © Editions Albin Michel - Paris 2024

# ميليسا دا كوستا

# صانعة النجوم

مكتبة
t.me/soramnqraa

رواية

ترجمة

روز مخلوف

إلى ابني مارتان

كنزي الثمين

نجمة لياليَّ

إلى كل الأطفال

على كوكبنا الجميل.

# 1

## الحاضر

*«تخيّل أنني كلفت بمهمة»* قالت لي أمي يوماً. *«لا أدري إذا كنت أستطيع أن أخبر أحدًا عنها.. من المحتمل ألاّ يصدّقني أحد. ربما سيزعمون بأن هذا كذب.. إنها مهمة سرية في الفضاء.»*

طافت عيناي بنظرة خاطفة على واجهة ماكينة بيع المشروبات الساخنة، دون أن أعير انتباهاً حقيقياً للإرشادات. قهوة، قهوة لاتيه، كابتشينو. لم أحب القهوة يوماً، لكنني يجب أن أبقى مستيقظاً لقسطٍ من الليل. إنها لحظة عسيرة، أستعد أن أعيشها.. ليلة فريدة سوف تغيّر حياتي. أعلم ذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ لا يمكنكِ الذهاب إلى الفضاء!

ـ لكنني كُلفت بذلك...

ـ إلى أين؟ إلى القمر؟ إلى المريخ؟

ـ ممم، لا... كوكب أجمل. أجمل بكثير.

بالمصادفة التامة، ضغطَتْ يدي فوق زر قهوة لاتيه.

في هذا المساء كنت أفكر بأمي أكثر من أي وقتٍ مضى. لم يكن الممر الذي أتواجد فيه، يحتوي على نوافذ، ومن غير الممكن رؤية السماء، لكنني كنت أعرف بأنها صافية، وأنني إذا رفعتُ رأسي إليها، سأعثر على كل النجوم التي تعلمتُ كيفية العثور عليها منذ أن كلمتني أمي عن مهمتها الخاصة في الفضاء، قبل ثلاثة وعشرين عاماً.

امتلأ الكوب البني ببطء، وتصاعدت فوقه أبخرة ساخنة. حشرتُ يدي في جيوبي وكبحتُ تثاؤباً. لدي بضع دقائق إضافية، ولدي رغبة بالعودة إلى الماضي، إلى ذلك اليوم تحديداً، اليوم الذي حدثتني فيه أمي عن مهمتها الخاصة في الفضاء. كان يوم خميس وكنتُ في الخامسة من عمري.

# 2

## اليوم الذي كلّمتني فيه امي عن مهمتها في الفضاء

كانت نهايةَ يوم غريبة. جاء أبي لكي يأخذني من المدرسة، لأن أمي لم تكن حاضرة. كانت السماء تمطر في الخارج. أردتُ حقاً أن أترك حذائي الموحل في المدخل، لكن أبي لم يوجه لي إطراءً على ذلك. لم يكن ينتبه أبداً إلى هذا النوع من التفاصيل، على عكس أمي. وبسبب المطر لم أستطع أن أتناول وجبة العصرونية فوق تَلّتي في الخارج. لذا جلست فوق سجادة الصالون، ذات اللون الأخضر الغامقة والشديدة النعومة، والتي لا يحق لنا عادةً أن نتناول الطعام فوقها. ولكن أمي كما قلتُ، لم تكن حاضرة، وأبي لا يعير اهتماماً إلى هذه التفاصيل. كنت أقضم لوح الشوكولاتة فوق سجادة الصالون، وأبي واقف منذ وقت طويل أمام النافذة. كانت هيئته عجيبة. هيئة الكبار وهم يستخدمون كلمات تبدو كأنها مختلقة ولا تعبر عن شيء ملموس:

«agio»، «argus» أو أيضاً «obsolescence». لبث في مكانه متسمراً، مثل تمثالٍ له صورة والدي، وأنا أقضم لوح الشوكول، بيد، وأمسح باليد الأخرى فوق وبر السجادة الطويل الذي يذكّرني بوبر كلبِ خالتي كاسّي، البنّي الفاتح الذي ينتمي إلى فصيلة لابرادور.

اصطفق الباب حين عادت أمي إلى البيت. بالنسبة للطفل الذي كنتُ عليه، أمي هي «أمي»، لكنها في نظر الآخرين «كلاريس»، بينما يسميها أبي «عزيزتي». لم تكن سيدة فارعة الطول، كانت على أية حال

أقصر من أبي، ولها شعر طويل بني فاتح ينسدل باستقامة خلف ظهرها. أحياناً تضم خصلاته بمشبك فضي، وأحياناً لا تفعل. أنا كنت أفضّله وهو منسدل. تنتشر على وجهها، كما على وجه أختها، الخالة كاسّي، بقع صغيرة، بقع شمسية. كانت أمي تلبس خاتماً وحيداً في يدها اليسرى، وقرطين صغيرين مذهَّبين في أذنيها. كانت تنبعث دوماً رائحة طيبة من عنقها، تحت الذقن تماماً، وهناك بالضبط كان أبي أساساً يحب أن يقبّلها.

لكنهما في ذلك اليوم، اليوم الذي كلمتني فيه أمي عن مهمتها الخاصة، لم يتبادلا القبلات...

في ذلك اليوم، نهضتُ بقفزة واحدة مع سماع صوت ارتطام المفاتيح فوق سطح الطاولة الجدارية الضيقة بالمدخل. اعتدتُ أن أهرع نحو المدخل، كلما جاء شخص إلى المنزل، وإن لم يكن ذلك الشخص سوى ساعي البريد. كان ذلك يجعل أمي تبتسم، وتمرر في شعري يداً تائهةً، وهي تواصل الكلام مع الزائر. وعندما يكون ذلك الزائر شخصاً نعرفه جيداً، كانت تضيف:

«آرثر، أعطِ الضيف قبلة»، فأدير خدي مرغماً، بانتظار تلقّي القبلة، ولا أقوم أنا بتقبيل أحد، أو أكتفي بقبلات زائفة لا صوت لها.

في ذلك المساء، لم أجد في المدخل سوى أمي ومظلّتها. لم تشعل الإضاءة في الردهة. مررت يدها في شعري وسألتني:

«هل أنت بخير، يا كنزي؟»

لاحظتُ على الفور بأن في صوتها شيئاً مختلفاً، وأنها تقول هذه الجملة فقط لأنها اعتادت على قولها، لأنها كانت لازمتنا اليومية. لكنها لم تُصغِ حقاً لإجابتي.

«رأينا في المدرسة حيوان الراكون. قال لنا المعلم بأن المطر والفيضانات هي السبب في ظهوره.»

استغرقت وقتاً لا نهاية له في خلع معطفها، كما لو أن إحدى ذراعيها كانت عالقة في كمّها.

«هل تعرفين ما هو شكل الراكون؟»

«راكون؟»

كانت الردهة لا تزال غير مضاءة، وصوتها المشتت نفسه، الذي سمعتُه عندما كانت تكلم جدتي في الهاتف وهي تثبته فوق كتفها لكي تواصل أعمال المنزل، مرددةً بانتظام بين وقت وآخر كلمات «نعم»، «صحيح»، «حقاً؟».

«الراكون كما في *بوكاهونتاس*[1]. ألم تشاهدي *بوكاهونتاس* من قبل؟»

انتهت أخيراً من تعليق المعطف، وفي اللحظة نفسها، وصل أبي وأسند ظهره على الحائط مصالباً ذراعيه. لم يفكر هو الآخر أن يشعل الضوء.

«في *بوكاهونتاس*، اسمه ميكو. ألا تتذكرين؟»

«انتظر يا كنزي، امنحني بعض الوقت، اتفقنا؟»

قالت هذا وهي تنظر إلى أبي، لا إليّ. أنزلَ أبي ذراعيه، لكنه كان لا يزال مستنداً إلى الحائط، كما لو أنه بحاجة لذلك لكي يتجنب السقوط. تحدث بالطريقة التي يتحدث بها الكبار أحياناً من بين أسنانهم، كما لو أنهم لا يريدون للكلمات أن تخرج من أفواههم:

«إذن...؟»

---

(1) الراكون ميكو، أحد أصدقاء بوكاهونتاس.

أسقطت أمي المظلة وهي تحاول نقلها من مكانها. صدرت عنها حركة غريبة، رفعت ذراعيها لكنها تركتهما يهوِيان بسرعة، كأنهما شديدي الثقل. وخرج من حنجرتها صوت غريب.

«آرثر، اذهب إلى الصالون وأَكمِل وجبتك الخفيفة»، قال أبي.

بدا صوته غاضباً، ولم أفهم ما الخطأ الذي ارتكبتُه.

«لكن...»

«اذهب وشغّل التلفزيون.»

مرّرت أمي يدها في شعري مجدداً، ثم دفعتني نحو الصالون.

«أنا قادمة يا كنزي، اتفقنا؟»

«اتفقنا.»

انطلقتُ مهرولاً دون انتظار مزيد من الإيضاحات. قبل اليوم لم يكن مسموحاً لي مشاهدة التلفزيون، لذلك اعتبرتُها فرصة لا تُفوّت. أضاءت الشاشة، ومعها عالمٌ آخر مُلوّن ومُبهج، وشديد الصخب. ومع ذلك، بقي بداخلي شيءٌ ما مطفأً، شيء من القلق. في ظلمة الردهة، كان أبي وأمي يتحدثان بصوتٍ خافت. شعرتُ أن الأمر غير عادي.

في ذلك المساء، لم يلاحظ أحد أنني لطختُ سجادة الصالون الخضراء وكنزتي الجديدة بالشوكولا. غادر أبي وأمي الردهة وصعدا إلى غرفتهما في الطابق العلوي. ثم عاد أبي إلى الطابق السفلي واتصل بجدتي وأخذ يتكلم معها هامساً في المطبخ.

«أنا جائع.»

لم يسمعني أبي. لقد كان على الخط مع جدتي، ورغم أنه لم يبدُ مبتهجاً، إلا أنه مع ذلك لم يبدُ عازماً على إنهاء المكالمة.

«أين أمي؟»

قال لجدتي: «انتظري، ابقي معي» أزاح سماعة الهاتف عن فمه وقال لي: « أمكَ لديها صداع وهي ترتاح. دعها وشأنها، اتفقنا؟»

«أنا جائع.»

«حسناً... سأسخن لك شيئاً تأكله.»

فتح الثلاجة، مثبتاً الهاتف على كتفه، فأخرج كل ما وجده فيها، ووضعه فوق سطح العمل.

«هيا، اختر ما ترغب به.»

في تلك الليلة، كان هناك الكثير من الأمور الغريبة. أولًا، عدم إنارة الضوء في الردهة، ثم التلفزيون. والآن، الوجبة. عادةً، لا يكون لي حق الاختيار. كانت أمي تُصرّ دائماً أن يوجد في أطباقنا نوع واحد على الأقل من الخضار الخضراء.

«لا، بالطبع... كنا نعلم بأن الاستشارة الثانية ستقود إلى الرأي نفسه...»

واصل حديثه عبر السماعة. لم يرني أُشير إلى علبة قطع الدجاج.

«فعلتْ ذلك لأجلي. كانت تعلم بأن رأيه سيتوافق مع رأي زميله.»

أغلقَ باب الثلاجة فجأةً. لوّحتُ بكيس قطع الدجاج خلف ظهره.

«لا، ليس الآن... قالت إنها ستتصل بك لاحقاً. أما الآن، فهي تفضِّل أن أكون وسيطاً...»

«أبي!»

«ماذا يا آرثر؟»

نظر إليّ أخيراً. كان وجهه متوتراً تماماً، كما يحدث عندما نضع رأسنا تحت الماء، ونضطر لحبس أنفاسنا.

«أريد هذا!»

لوّحتُ بالعلبة أمام وجهه.

«أجل، آرثر لا يزال هنا» قال في السماعة.

كنتُ متأكداً بأن جدتي ستطلب التحدث معي، كما تفعل دائماً. مددتُ رقبتي، مستعداً لسماع طلبها المعتاد: «دعني أتكلم إلى عصفوري الصغير» لكن أبي كرر لي، بصوت كأنه غاضب، صوت يوجه صفعة:

«هل استحمَّيتَ؟»

هززتُ رأسي نافياً. تناول مني كيس قطع الدجاج وانحنى ليُشغّل الفرن.

«ذهب واستحِمّ.»

«ولكن...»

«ستذهب وتستحمّ، أليس كذلك؟ لا، لم نخبره بشيء حتى الآن.»

لم يعد الكلام موجهاً لي. لا شك أنها كانت أمسية غريبة طالما جدتي بالذات منخرطة في الموضوع.

عندما ذهبت لكي أستحم، ونظراً لعدم وجود من يراقبني، لم أُبلّل شعري. كنت أكره غسله لأن الشامبو يُحرق عينيّ، ولأن أمي تجبرني بعد ذلك على الوقوف تحت مُجفّف الشعر، وهي تقلِّب رأسي إلى كل الجوانب، الأمر الذي يستمرّ ثلاث ساعات، في حين تنتظرني ألعابٌ كثيرة في غرفة النوم.

حين عدتُ إلى الطابق السفلي، كان أبي لا يزال على الهاتف، لكنه كان يتكلم مع شخص آخر، وليس مع جدتي.

«أوه، اللعنة!» صرخ عندما رآني.

ركض وجثا أمام الفرن وهو يطلق ألفاظاً بذيئة أخرى يُسمح بها للكبار، وممنوعة على الصغار. فتح باب الفرن، فملأ الدخان الأسود

المطبخ بأكمله. سعلتُ وضحكتُ في آنٍ واحد، وأنا أغطّي فمي وأنفي بقميص بيجامتي. كان أمراً مُضحكاً جداً أن يرتكب أبٌ حماقةً. لم يكن هذا أمراً كثير الحدوث. أفرغَ قطع الدجاج على طبق، ثم أسقط الطبق في الحوض وهو يهز يده.

«لا تتصلي بها قبل الغد، من الأفضل الانتظار». قال مواصلاً الكلام في الهاتف.

اعتقدتُ أنني تعرفت على الصوت في السماعة. كنت متأكداً أنها خالتي كاسّي. انتظرتُ، متسمراً أمامه.

«تناولت حبة من الدوليبران، وحبة من دواء يساعدها على النوم.» شددتُه من بنطاله.

«ماذا يا آرثر؟»

«ألن نأكل؟»

«ضع بنفسك.»

فتح جاروراً، وناولني منه شوكة.

«انتبه، الطعام ساخن.»

لكنني لم أتحرك. كانت خالتي كاسّي لا تزال تتكلم في السماعة، وأبي يصغي عاقداً حاجبيه. حدّق بي دون أن يستوعب. «اذهب لتأكل يا آرثر.»

أشار إلى الأريكة في الصالون. لم نكن نأكل في الصالون أبداً، بل كنا نجلس دائماً حول المائدة، مع أمي وأبي. *بلا غضب ولا صراخ!*

«وماذا عن أمي؟»

«أمك ذهبت إلى السرير. لديها صداع. سنأكل أنا وأنت فقط. اذهب وباشر، وإلا سيبرد الدجاج.»

أردت الاعتراض، لكنه نظر إليّ نظرة صارمة.

«تقول الخالة كاسّي إن الأولاد الكبار يستطيعون تناول الطعام بمفردهم دون آبائهم، وتُراهن بأنك لن تستطيع.»

«غير صحيح.»

ناولَني السماعة لثانية تكفي فقط لسماع الخالة كاسّي تقول بصوت مرتفع:

«ألا تستطيع ذلك، يا آرتورو؟»

كان أبي قد عاد، بخطواتٍ واسعة، إلى الطرف الآخر من المطبخ وهو يُشير لي أن أغادر على عجل.

في ذلك المساء، كان كل شيء غريباً. لم يشاركني أبي قطع الدجاج. وعندما انضم إليّ، كنت قد غفوت على الأريكة، وقال بأنه لم يكن يشعر بالجوع. حملني إلى غرفتي وأشعل ضوء الليل الصاروخي. كانت أمي هي من يفعل ذلك عادةً، ثم يأتي أبي بعد ذلك مباشرةً ويقبّلني على جبيني قائلاً: «أحلاماً سعيدة».

في ذلك المساء، انقلب كل شيء رأساً على عقب، وطلبت من أبي أن يقرأ لي قصة. حاولتُ أن أجعله يطيل القصة أكثر وقت ممكن، رغم أن صوته لم يكن كما ألفتُه. جعلتُها تستمر إلى أن غرقتُ في النوم.

فتحتُ عينيّ لاحقًا، في ليل غرفة النوم، الأزرق. كان مصباح غرفتي الليلي، ذو الشكل الصاروخي، يصنع هالة جميلة تنعكس منتشرةً على السقف، مثل فقاعة صابون. كانت أمي جالسة على طرف سريري، بلا حراك. بدت كأنها تمثال في صورةِ أمي. تململتُ.

«أمي؟»

بدت متفاجئة لرؤيتي مستيقظاً.

«كل شيء بخير يا كنزي. عد إلى النوم.»

جاءت للجلوس قرب وسادتي، ومرت بيدها النديّة فوق جبيني وهي ترفع عنه خصلات شعري.

«جئتُ فقط لكي أُقبّلكَ.»

«نحن في الليل؟»

«لا، ما زال الوقت مساء، ولكن في ساعة متقدمة قليلاً منه.»

بدا وجه أمي أزرق، وعيناها بنفسجتين، وبدا شعرها أغمق في الظلام، كما لو أنه مبلل. كانت تشبه أميرة مياه. أخبرتُها بذلك، فابتسمت. ثم أضفتُ:

«أعدّ لي أبي قطع دجاج. الخالة كاسّي قالت إنني أستطيع أن آكل بمفردي. أنت وأبي لم تأكلا.»

«بلى يا كنزي، لا تقلق. لقد أكلنا في وقت لاحق أثناء نومك.»

«هل أكلتما قطع دجاج؟»

«لا. لقد أكلنا...» توقفتْ لحظةً للتفكير وقالت: «حساء.»

«أنتِ مريضة؟»

جمدت يدُها فوق رأسي.

«ماذا؟»

«قال أبي إنكِ تعانين من ألم في رأسك.»

«أوه!»

تحركت يدُها مجدداً، وضمَّتْها إلى اليد الأخرى، بين ركبتيها. بدت، على هذا النحو، أشبه ببنتٍ صغيرة، منحنية إلى الأمام.

«هذا لأنني سمعت اليوم خبراً غريباً.»

«في عملك؟»

«نعم، في عملي.»

كان عمل أمي في مكتب، حيث يتعين عليها، كما يبدو، أن تجلس طوال اليوم، كما هو الحال بالنسبة لنا في المدرسة، إلى حد ما، لكنها هي لم يكن لديها استراحة للركض أو اللعب. كانت تعمل بواسطة كمبيوتر، ويتوجب عليها القيام بكل الأعمال التي لا يريد الرؤساء القيام بها. كانت تمارس عملاً يسمونه «سكرتيرة». كنتُ مع وضع هذه الكلمة إلى جانب الكلمات الأخرى المعقدة وغير الجذابة: argus, obsolescence إلخ. لكنها قبل ذلك، في حياتها السابقة قبل أن تصبح أمي بعد، كانت رسامة. كانت هناك امرأة تكتب القصص، وهي ترسم لها الصور. هي التي رسمت صور *زازو السلحفاة التي لم ترغب بحياة التكاسل*. مجموعتي الكاملة من القصص مِن رسْمِها. ثم توقفت عن ذلك العمل، لأنه لم يكن كافياً لدفع الفواتير، ومع وجود طفل، كان يجب تغطية الفواتير.

«تخيل أنهم كلفوني بمهمة» استأنفَتْ أمي كلامها.

حدّقتُ في عينيها البنفسجيتين.

«رؤساؤك؟»

«نعم، رؤسائي.»

«وما هي المهمة؟»

نظرت أمي إلى السقف وكأنها تفكر. أحياناً يفعل الكبار ذلك عندما يبحثون عن كلمات لكي يشرحوا للصغار، أموراً خاصة بالكبار.

«سيتعين علي السفر بعيداً...»

«إلى أين؟»

«إلى مكان بعيد... بعيد جداً.»

«بعيد، إلى أي حد؟ هل تقصدين أنه بعيد مثل إيطاليا؟»

ذهبنا يوماً إلى إيطاليا لقضاء عطلة الصيف. كانت الرحلة طويلة لدرجة أنني نمتُ ثلاث مرات.

«أبعد.»

«بعيد مثل... مثل أفريقيا؟»

«أبعد.»

«لا وجود لمكان أبعد من ذلك.»

«بلى...»

«لا!»

«اسمع يا آرثر... لا أدري إذا كنت أستطيع أن أكلمك عنها. إنها مهمة سرية.»

جلستُ في سريري. أشارت لي بالاقتراب ووضعت إصبعاً على شفتيها. صعدتُ إلى حجرها وأويت برأسي في ثنية عنقها، أسفل ذقنها مباشرةً، موطن رائحتها.

«سوف أحافظ على السر، قلتُ.»

«هل تعدني بذلك؟»

«أعدُكِ.»

«إنه أمر مهم يا آرثر. لأن المهمة خاصة حقاً. الآخرون من حولنا قد لا يصدقوننا. سوف يزعمون بأن هذا غير صحيح...»

«وماذا عن جدتي، وخالتي كاسّي؟»

«هما أيضاً، سوف نخبرهما بالسر. ولكن الأمر سيقتصر علينا نحن الخمسة، اتفقنا؟

«اتفقنا.»

«هل نتعاهد؟»

«نتعاهد.»

مدت لي أمي إصبعها الصغير معقوفاً ومددتُ لها بِنْصري. ربط كل منا إصبعه بإصبع الآخر، مثل حبكتين، للمصادقة على احترام الاتفاق. بعد ذلك فكت أمي الرباط.

«حسناً، هل تريد علامة لكي تحزر؟»

«نعم.»

راحت عيناها تطوفان في أرجاء الغرفة بحثاً عن شيء ما.

«العلامة الأولى موجودة في الغرفة.»

«هنا؟»

«نعم.»

ابتسمت أمي على نحو يلفه الغموض، لكن عينيها فضحتاها. لقد نظرتا إلى المصباح الليلي ذي الشكل الصاروخي.

«صاروخ؟»

اتسعت ابتسامتُها.

«صاروخ؟ هل سيرسلونكِ إلى الفضاء؟»

وضعت يدها من جديد فوق شفتيها. انفصلتُ عن جذعها، صالبتُ ذراعيّ ورحت أنظر إليها بتمعن، لكن الإضاءة لم تكن تسمح بتمييز ملامحها، لمعرفة ما إذا كانت تمزح أم لا. أعلنتُ بقوة:

«لا يمكنكِ الذهاب إلى الفضاء! «

«لكن هذا ما طُلب مني..»

«إلى أين؟ القمر؟ المريخ؟»

«ممم، لا.. إلى كوكب أجمل. أجمل بكثير.»

لم أستطع تذكر أي كوكب آخر.

«ماذا لو أخرجت لك موسوعة الفضاء؟ ربما أستطيع معرفته...»

بقفزة واحدة، نزلتُ من السرير دون أن أمنحها الوقت لكي تغيّر رأيها. بالكاد كنت أدرك بأن الوقت متأخر، وأن عليّ الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي، وأنه لا يسمح لي عادةً بالسهر هكذا. وقفتُ على أطراف أصابعي لأشعل ضوء السقف، ثم توجهتُ إلى المكتبة التي ركّبها لي أبي في عيد ميلادي. كان هناك موسوعات مُصوّرة: عن الفضاء، والحيوانات، والزهور، والفصول. لم أستطع قراءتها بنفسي بعد، لكنني تصفحتُ الصور وفهمتُ كل شيء تقريباً.

جلست أمي أرضاً، فوق الموكيت، متربعةً. أويتُ إلى حضنها، مُلتصقاً بصدرها.

«أنا سأقلب الصفحات!»

«حسناً.»

فتحتُ الكتاب بورقه اللامع، على الصفحة الثانية، حيثُ يظهر رسمٌ إيضاحي للنظام الشمسي وكواكبه الثمانية. انزلقت أصابعي إلى أسفل كُرات الكواكب.

«اقرئي لي.»

استجابت أمي:

«عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون.»

اتجه رأسانا نحو ضجة خفيفة. كان أبي هناك، يقف في المدخل، ببيجامته الزرقاء المخططة بالأبيض، والذهول يرتسم على وجهه. قال مخاطباً أمي:

«أنتِ هنا... بحثتُ عنك...»

تقدَّم فوق الموكيت وجلس القرفصاء بجانبنا.

وسألنا: «ماذا تفعلان؟»

أجابته أمي: «كنت أكشف سري لآرثر.»

«سرُّكِ؟»

«نعم، الأمر الذي عرفتُه اليوم... بخصوص هذه الرحلة التي سيرسلونني إليها.»

الصمت الذي تلا ذلك، والذي طال على نحو غريب، جعلني أتململ، ملصقاً إصبعي فوق الكتاب بنفاد صبر.

«إلى أي منها ستذهبين؟»

جلس أبي خلف أمي على الموكيت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«إلى أي منها؟» قلتُ بلهفة.

«إلى الأجمل.» أحابت أمي بابتسامة

سألتها: «وأيٌّ منها هو الأجمل؟»

مسحت رأسي وسألتني: «ما رأيكَ أنت؟»

انكببتُ فوق الكتاب، ورحتُ أنقل نظري بين الكواكب الثمانية. خطر لي بأن الأرض جميلة جداً وأننا محظوظون جداً بالعيش عليها. المريخ ليس سيئاً، لكن الأحمر ليس لوني المفضل. الأزرق هو لوني

المفضل بلا شك. عندها، وقعت عيناي على الكرة الزرقاء الجميلة المخضرّة والحلقات الرقيقة المحيطة بها.

«هذا؟»

سألتُ وأنا أرفع رأسي إلى وجه أمي.

سألتني: «هل هو الأجمل بنظرك؟»

«نعم.»

أعلنت أمي وهو تنظر إلي مبتسمة: «إنه هو بالفعل.»

«ما اسمه؟»

«أورانوس.»

«ماذا كُتب هنا؟»

أشرتُ إلى الكتابة التعريفية المتعلقة بالكوكب الأزرق.

«دعنا نرى» قالت، وقرأت: «كُتب هنا بأن أورانوس كوكب عملاق متجمد.»

«متجمد! هل الجو بارد هناك؟»

«نعم. بارد جداً.»

«ماذا أيضاً؟»

«وإنه محاط بثلاثة عشر حلقة و... أوه! استمع إلى هذا: يتبع له سبعة وعشرون قمراً!»

انفتحت عيناي على وسعهما من الدهشة، ورحت أنقل نظري بين أمي ـ التي كانت تهز رأسها مؤكِّدةً ـ وبين أبي الذي بقي صامتاً.

«هذا غير ممكن!» قلت

«بلى، إنه مكتوب. «

«وماذا أيضاً؟ ماذا كُتب أيضاً؟»

عادت أمي لقراءة الملحق الكتابي: «هناك... أوه، يوجد مخلوقات قطبية على أورانوس!»

«هل يوجد دببة؟»

«نعم.»

«بطاريق؟»

«يفترض ذلك.»

«ماذا أيضاً؟»

«مخلوقات غير موجودة على كوكبنا.»

«مثل ماذا؟»

تململ أبي خلف أمي، وتنحنحَ. ثم قال: «أظن أن الوقت قد حان لكي يذهب آرثر إلى النوم، أليس كذلك يا عزيزتي؟»

نظرت إليه أمي. لبثا طويلاً على هذا الحال، لا ينطقان بكلمة، فقط يقطب كل منهما حاجبيه. ثم هز أبي رأسه، واختفت ابتسامة أمي عن وجهها.

«حان وقت النوم» كرر أبي.

«لا!» قلتُ محتجّاً.

«كن عاقلاً يا آرثر.» عاتبني أبي «الوقت متأخر جداً.»

استنجدتُ بعينيّ بأمي، لكنها دفعتني برفق عن حجرها، ونهضتْ ببطء.

«مثل ماذا، يا أمي؟» صرختُ.

مررت يدها في شعري، بشيء من التعب. كانت عيناها مثبتتين الآن على الحائط. حملني أبي بين ذراعيه: «كفى يا آرثر. سنتكلم عن الكواكب غداً.»

لكنني قاومتُ بشدة: «ليست مسألة كواكب! إنها مهمة أمي الخاصة!»

«سنرى ذلك غداً.» قال.

قُرب الباب، بدت سحنةُ أمي غريبة، كما لو أنها لم تعد ترانا، وكما لو أنها لم تعد تسمعنا أيضاً. كانت تحدق إلى شيءٍ غير مرئي وسط الغرفة.

«تمنَّ لأمكَ ليلة سعيدة يا آرثر.»

طبع أبي قبلة على جبيني ثم سحب الغطاء بالقوة إلى تحت ذقني. ومن خلفه، أرسلت لي أمي بيدِها قبلة، وعيناها لا تزالان تنظران في الفراغ.

انطفأ ضوء السقف. لم يبقَ إلا الهالة الزرقاء التي ينشرها صاروخي، على السقف. اختفى أبي وأمي. أصبحت بمفردي في الظلام، وفي ذهني ألف سؤال عن كوكب أورانوس...

«هل توجد فقمات على أورانوس؟» ناديتُ.

«إلى الغد!» أجاب أبي.

في ذلك المساء، سمعتُ والديّ يتبادلان في الردهة، همسات سريعة جداً، كما لو أنهما يتشاجران، فيما رحت أحاول أن أتخيل شكل العيش مع سبعة وعشرين قمراً. خطرت لي فكرة أن الظلام لن يخيم هناك تماماً حقاً...

# 3

## اليوم الذي حبسَ فيه أبي غيمة

حتى ذلك الحين، كانت هناك قواعد ثابتة في المنزل. الثامنة والنصف مساءً هو وقت النوم، والسادسة مساءً، وقت الاستحمام، ولا يمكن أن يتأخر وقت الجلوس إلى مائدة الطعام عن السابعة والنصف مساءً، أبداً. كان يوم الأربعاء هو يوم غسيل الثياب، والسبت بين منتصف الظهيرة والساعة الثانية، هو يوم التسوق. لم يُسمح لي بمشاهدة التلفزيون إلا مساء السبت، وحتى وقت لا يتجاوز ظهور أول فاصل إعلاني. وفي ظهيرة يوم الأحد، كنا نتناول الغداء في منزل جدتي بصحبة كاسّي. لم يساوم أبي ولا أمي بشأن هذه القواعد، مع أن أبي كان يحاول أحياناً نقل غداء الأحد إلى منزل جدتي لتمديد فترة نومه الصباحي..

كانت حياتنا تسير بسلاسة، لكن كل شيء تدحرج فجأة بعد إعلان أمي عن مهمتها الفضائية. حدث ذلك ليلة الخميس. في يوم الجمعة، لم أكن قد لاحظت شيئاً مختلفاً. ذهبتُ إلى المدرسة، ولم تكن أمي قد أجابت على أسئلتي حول كوكب أورانوس. في كل مرة حاولت التحدث عنه، كانت تضع إصبعها فوق شفتيها كما لو أن هناك أشخاص، مختبئين خلف متاريس، قد يسمعوننا. وفي يوم السبت، بينما كنت أقف على تلّتي الترابية، محاولاً تشغيل طاحونتي الهوائية متعددة الألوان، فقد جاءت إليّ وأعلنت:

«آرثر، ارتدِ حذاءك. سنذهب في نزهة إلى الغابة!».

كانت الساعة عند الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، وهو الوقت المعتاد الذي كانت تذهب فيه للتسوق. كانت تحمل حقيبة قماش مليئة بالمؤن. خلفها، كان أبي يرتدي سترة جينز، وقد بدا عليه شيء من الضياع.

أبي هو فيكتور بالنسبة للآخرين، وأمي تناديه *فيك*. كان رجلاً طويل القامة، حليق الرأس، بحاجبين ملتويين، يرتدي قميصاً ملوناً من قماش المربعات. لكن أبي، في صغره، قبل أن يصبح أبي، فكان له شعر أسود كثيف، لكنه فقده تدريجياً، وخاصة على الجانبين، فحلَقَه. كان أبي ميكانيكياً يتعامل مع الآلات، يداه مربعتان، خشنتان، ومليئتان بخطوط سوداء. في ذلك اليوم، كان أبي يرتدي قميصاً بمربعات حمراء وبيضاء، تحت سترة الجينز.

في ظهيرة ذلك اليوم، صعدتُ إلى السيارة، وسمعتُ صوت انغلاق بابها خلفي. جلس أبي خلف المقود. كانت أمي بجانبه، تضع حقيبتها القماشية على ركبتيها. بالكاد أتيحت لي الفرصة لارتداء حذائي المطاطي. الكنزة الصوفية السميكة التي ألبسَتْني إياها أمي، كانت مجعدة عند المرفقين؛ أزعجني ذلك، لكن كان لديّ أمور أهم للتفكير فيها.

«لم أستطع أن ألتقط الريح.»

«يا إلهي،» أجابت أمي. «هذا مزعج.»

كانت تلّتي الترابية، خلف المنزل، مختَبَراً في الهواء الطلق، أمارس أشياء كثيرة هناك: أستكشف المنطقة في الجوار، أراقب الغيوم أو السماء التي تتلبد، أخبر أمي وأبي عن المطر أو عن وصول سيارة الخالة كاسّي أو سيارة ساعي البريد، أُجهّز منصة إطلاق صاروخي أريان 5، أو

أنطلق بأقصى سرعة على دراجتي. أحياناً كنت أذهب إلى هناك أيضاً لكي ألتقط الريح في طاحونتي الهوائية، وأتفرج على أذرُعِ مروحتِها، الصفراء والزرقاء والخضراء والحمراء، وهي تدور، أحياناً بسرَعة وأحياناً ببطء.

«يمكنك التقاط الريح في الغابة» قالت أمي.

«مستحيل.»

«أه حقًا؟ لماذا؟»

«يجب أن نكون في مكان مرتفع لكي نلتقط الريح.»

«آه...»

«وأشجار الغابة تحجب الريح. لهذا، لم نرَ طاحونة هواء في الغابة أبداً.»

«معك حق.»

واصلتُ تحريك طاحونة الهواء من الخلف، مستخدماً أصابعي لتدوير المروحة.

«سيتعين علينا أن نلتقط شيئاً آخر إذاً» أعلنت أمي.

«ماذا؟ نمْل؟»

«لا لا أظن بأن النمل يحب الإمساك به.»

«ماذا إذن؟ هل نلتقط التراب؟»

«التراب، فكرة جيدة.»

شغّل أبي الراديو. التفتت أمي إليّ، وعلى وجهها نظرة غريبة:

«والروائح؟ ما قولك في التقاط الروائح!»

لم يخطر ببالي أن من الممكن التقاط الروائح، لكن أمي أثبتت العكس في ذلك اليوم: كان من الممكن التقاط الروائح.. وحتى الأصوات.

يمشي الكبار في نزهاتهم بسرعة كبيرة دوماً. يندفعون إلى الأمام دون أن ينظروا إلى أي شيء. لا يتوقفون أمام الجذور الشبيهة بالأفعى لكي يتساءلوا: هل هذه أفعى بوا أم أناكوندا؟ لا ينحنون لتأمُّل خنفستين من *خنافس النار*، متصلتين ظهراً لظهر، لكي يتساءلوا أيهما الذكر وأيهما الأنثى، والأهم من ذلك كله، لكي يحاولوا تخمين عدد الصغار الذين سوف ينجبانهم.

ولا يحاولون أن يحملوا معهم إلى المنزل أجمل ورقة شجر أو أنعم حصاة، بل يمشون هكذا، أيديهم في جيوبهم، برؤوس يلفُّها القلق، ومن حين لآخر كانوا يستديرون وهم يصعِّدون الزفرات:

«هيا يا آرثر، أسرِع قليلاً».

لأسفي الشديد، كان أبي وأمي يفعلان ذلك عادةً. في ذلك اليوم، في الغابة، اندفع أبي كعادته، واضعاً يديه في جيوبه، وهو ينظر إلى الأسفل، نحو حذائه. لكن أمي بقيت معي في الخلف وقالت إن جذور الشجرة التي رأيناها هناك بدت أشبه بثعبان. فكرتُ للحظات.

«هل يوجد ثعابين على كوكب أورانوس؟»

ألقت أمي نظرةً للأمام كأنما لكي تتأكد من أن أبي لا يستطيع أن يسمع. أوحت لي بأنه لا يحب أن نتحدث أنا وأمي عن سرنا الصغير.

«لا.»

«لماذا؟»

«أولاً... لأن الجو بارد جداً. الأرض جليدية. لا توجد أية أعشاب تختبئ الثعابين بينها.»

«أه...»

«ثانياً، لأنه لا توجد حيوانات مخيفة على كوكب أورانوس. كما لا يوجد أي شيء خطير أيضاً.»

«لا توجد براكين إذن؟»

كان لديّ في البيت موسوعة عن البراكين، وكنت أعلم أن الحمم البركانية قادرة على ابتلاع قرى بأكملها.

«لا، لا توجد براكين. لكن هناك منحدرات جليدية جميلة ومسطحات جليدية طافية.»

«أوه! هل *خنافس النار* موجودة هناك؟»

«لا أعتقد ذلك... لكن هناك حلزونات الجليد.»

«هل يوجد شيء من هذا القبيل؟»

«بالتأكيد. أصدافُها زرقاء.»

«لكن ماذا تأكل؟ قلتِ إنه لا يوجد عشب.»

«أوه، لكن هناك شيء أفضل!»

«ما هو؟»

«بقدونس قطبي.»

نظرت إليها بعينين مفتوحتين على وسعهما من الذهول.

«هل هو بقدونس أزرق؟»

«لا، أبيض. أبيض كالثلج.»

«ما طعمه؟»

«طعمه مثل آيس كريم البقدونس. حلزونات الجليد تعشقها.»

عبستُ. لم أكن متأكداً من أنني قد أتناوله لو كنت حلزوناً جليدياً.

نادانا أبي الذي يسير على مسافةٍ منا إلى الأمام: «هل أنتما قادمان؟»

مدت أمي يدها، فأمسكتُ بها. انضممنا إلى أبي، الذي بدا متذمراً.

«وأشجار؟ هل توجد أشجار على كوكب أورانوس؟» سألت تاركاً نظري يتجول بين أشجار البلوط من حولنا.

كانت يدي ويد أمي، اللتان لا تزالان متشابكتين، تتأرجحان بالإيقاع نفسه.

«هل ما زلتِ تُحدّثينه عن... مهمتك؟» سأل أبي.

«نعم.»

«هل توجد أشجار» كررتُ سؤالي.

تبادل أبي وأمي كلمات من بين أسنانٍ مطبقة. وأجابتني:

«يوجد شجر الأيائل.»

«وما شجر الأيائل هذا؟»

«أشجاره مدهشة، مزودة بجذوع نحيلة وفروع على شكل قرون الأيائل. وفي نهايات الأغصان تتدلى أجراسٌ تهتز في الريح وتُصدر نغمة جميلة. إنها أجمل أشجار ممكن أن تراها.»

«أليس لها أوراق؟»

«بلى، ولكن في الربيع فقط. أما في بقية العام، فلها أجراس.»

« ما شكلُ الأوراق؟»

«على شكل قطرات المطر، لونها بنفسجي. بنفسجي فاتح جداً.»

لبثتُ مندهشاً. تقَدَّمَنا أبي مرةً أخرى، كان يسير بخطىً حثيثة واسعة.

«أوه، انظرا!» هتفت أمي وهي تشير نحو جذع شجرة، ملقى على حافة الطريق، نمَت فوقه الطحالب: «أعتقد أنه سيكون مقعداً مثالياً للجلوس وتناول الطعام.»

وضع أبي مؤخرته عليه فوراً. حدقت إلي أمي، تنتظر رأيي. كنتُ بصدد رسم أخاديد في التراب، بواسطة غصن شجرة، فتركتُ عصاي وانض ممت إلى أبي. كانت قد أعدت سلطات بالمعكرونة وضعتْها في أوعية بلاستيكية صغيرة.

«هذه فرصة مناسبة»، أعلنتْ. يمكننا استخدام الأوعية لالتقاط الأصوات والروائح.»

تحمستُ للفكرة، وبدأتُ أتناول الطعام أسرع من المعتاد. «بهدوء» قال أبي. «سوف تختنق بالطعام.»

كان الجو بارداً قليلاً في الغابة، وعندما بدأ هطول المطر، أعلن أبي أن الوقت حان من أجل العودة، لكن أمي هزت رأسها غير موافقة: «على العكس، إنها فرصة جيدة. ستكون الروائح أقوى مع المطر.»

كنتُ أتناول تفاحة في نهاية وجبتي، تاركاً قدميّ تتأرجحان في الفراغ.

«خذ نفساً عميقاً» قالت لي أمي. «سوف تشعر بالروائح المنبعثة من الأرض.»

رحتُ أشمُّ مُجعّداً أنفي. كانت الرائحة شبيهة برائحة تَلَّتي بعد عاصفة مطرية. رائحة شيء ثقيل ويصعد إلى الرأس، شيء دافئ ومطمئن، كأنه عطر أبي.

«اصْغِ» أضافت «اِصْغِ إلى هذا! سنتمكن من التقاط صوت المطر!»

بدا أن الصوت يفتنها. كانت القطرات تصدر صوتاً جميلاً وهي تتساقط فوق قمم الأشجار، صوت ارتطام خفيف مُهدهِد. لشدة استعجالي، أسقطتُ تفاحتي على الأرض وأنا آقف، لكن أحداً لم يُوجه لي كلمة تأنيب.

«علينا أولاً، أن نغسل العلب»، أعلنت أمي.

رحت أراقبها وهي تُنظف أوعية الوجبات بمياه من قارورتنا. وسألتها:

«هل تهطل أمطار على أورانوس؟»

«نعم. أمطار جليدية.»

«كيف تكون؟»

«قطرات فضية صغيرة تلمع بشدة كالألماس. عندما تسقط، تُحدث ثقوباً صغيرة على سطح الصفائح الجليدية، وفي كل ثقب تنمو زهرة ثلج.»

«أوه!»

كانت موسوعة نباتاتي تحتوي على أزهار ثلج.

«هل تكون الرائحة مشابهة عندما تمطر على أورانوس؟ «

«من يدري؟ سأخبرك عندما أُصبح هناك.»

أخذت أمي الآن تهز العلب لتجفيفها. وقالت بابتسامة: «أحياناً يتساقط الثلج، وتتجمع كل الحيوانات لمشاهدته.»

ارتسمت على شفتيّ ابتسامةُ ذهول. فطلبت منها: «ألا يُمكنني مرافقتك يا أمي؟ ألا أستطيع مرافقتكِ؟»

ظهر على وجهها تعبير غريب: «لا يا آرثر»

ألححت: «ولكني أريد مرافقتك»

«لا يُمكنك المجيء، لا أنتَ ولا أبوك.»

«لماذا؟»

ابتعد أبي بضع خطوات، واضعاً يديه في جيوبه. لم أرَ سوى ظهره والكتابة على سترته الجينز.

«إنها مهمة سرية، تذكر ذلك. انظر، لقد جفت العلب.»

ناولتني علبة، لكنني لم آخذها. كنتُ أشعر بالخيبة. لم أرَ أبداً مسطحات جليدية على أرض الواقع، ولا طيور بطريق ولا أمطاراً متجمدة.

لا أعرف لماذا بدا صوتها دافئا عندما قالت: «يوماً ما ستتمكن من الانضمام إليّ يا كنزي. أبوك أيضاً. لكن ليس الآن.»

«متى؟»

«عندما تصبح كبيراً وطويل القامة.»

«طويل القامة مثل أبي؟»

«أطول منه.»

«لا! هذا بعيد جدًا»

كان أبي أطول شخص عرفته في حياتي تقريباً. سيستغرق مني الأمر ألف عام على الأقل لكي أصبح بطولِهِ.

«الوقت يمر بسرعة يا آرثر. ليس عليك أن تشغل بالك بمسألة الطول.»

«هذا غير صحيح!»

«بلى. في يوم من الأيام، كنت طفلة صغيرة، في عمر لا يزيد عن عمرك، وصنعتُ من صناديق الأحذية مزارع لتربية النمل، وفي اليوم التالي، تزوجتُ والدك. وفي غمضةِ عين، كنتُ أحملك بين ذراعي، وأصبحتُ أماً.»

«ظننتُ أن النمل يجب ألا يُحبَس.»

انفجرت أمي بضحكةٍ تشبه ضحكةَ طفلة صغيرة لطيفة، وحتى أبي ضحك بصوت مكتوم. استدار. كانت عيناه تلمعان.

«كلامك صحيح» أقرّت أمي. «يجب ألّا نحبس النمل. آنذاك، لم يخبرني أحد بذلك. كانت فكرة سيئة للغاية، ولحسن الحظ، أن نِمالي كانت في منتهى الدهاء، وهربت جميعاً أثناء الليل... والآن تعال أعلمك كيف نلتقط الروائح»

أرشدَتْنا إلى كيفية القيام بذلك. كان علينا أن نحبس بعض الهواء من حولنا بتلويح العلبة فوق رؤوسنا.

«أبي سيتولى ذلك!» قلتُ مشترِطاً. «إنه صاحب أطول ذراعين. سيتمكن من التقاط الروائح العالقة في الأشجار.»

«ممتاز»، كررت أمي.

فعلَ أبي ذلك بامتثالٍ غريب، وهو يركز بصمت. كان ينتقل من شجرة إلى أخرى، رافعاً أنفه نحو السماء، ملوّحاً بذراعيه، يلتقط الروائح. صرختُ من مكان جلوسي على جذع الشجرة:

«لا تنسَ رائحة الأوراق يا أبي!»

«بالتأكيد.»

«كل الأوراق!»

«حاضر.»

«ورائحة قطرات الماء!»

«موافق.»

«وأعشاش الطيور!»

أضافت أمي وهي جالسة أيضاً على جذع الشجرة، بجانبي: «*فيك*، حاذِر من أن تحبس غيمة!»

فتحتُ عينيّ على وسعهما مندهشاً.

«الغيوم؟»

ـ «أجل. كن واثقاً من أنها لا تُحب أن تُحبس!»

«موافق» أجاب أبي. «ذراعاي طويلتان جداً، لكنني سأكون حذراً.»

بالنسبة للأصوات، كان الأمر أكثر سهولة. أرشدتني أمي إلى كيفية التقاطها، كل ما كان علينا فعله هو أن نقف ونبقي أعيننا مغمضة، ونمسك بالعلبة بشكل مسطّح بين أيدينا.

«هكذا؟»

«نعم.»

«هل هذا يكفي؟»

«يكفي. ستأتي الأصوات وتستقر بين يديك.»

بقينا ثوانٍ طويلة على هذا الحال، متسمرين، وأعيُننا مُغمضة، إلى أن رن صوت أمي بجانبي:

«ماذا تلتقط يا آرثر؟»

«... صوت قطرات المطر!»

«هذا جيد.»

«وأنتِ يا أمي؟ ماذا تلتقطين؟»

«تغريد الطيور.»

«يا لها من فكرة!»

كان الأمر أكثر إثارة للاهتمام من التقاط صوت المطر، وندمتُ لأنني لم أفكر بذلك من قبل.

«أنا الذي سأقوم بذلك! أريد أن ألتقطها أيضاً!»

«ليكنْ... سأترك لك إذن أصوات التغريد.»

ركزتُ بضع ثوانٍ على زقزقةٍ بعيدة لبضعة طيور في أشجار البلوط. تساءلتُ إذا كانت الأصوات ستصل إلى راحتيّ:»والآن؟ ماذا تلتقطين يا أمي؟»

«ممم... طنين ذبابة.»

فتحتُ عينيّ واستدرتُ على عقبي:

«لا يوجد ذباب.»

«أه!»

«لا أرى أي ذباب.»

«في هذه الحالة، ربما كان الطنين عالقاً في رأسي. هل تسمح لي بالتقاطه؟»

«حسناً.»

«شكراً يا كنزي.»

قبل أن أغمض عيني مجدداً، لمحت ابتسامة جميلة على شفتي أمي. لقد أحسنتُ صنعاً بتركِ الطنين لها...

في السيارة ونحن في طريق العودة إلى المنزل، سألت أمي إذا كان بإمكاننا فتح العلب لكي نشم رائحة الغابة، ونسمع أصواتها. لم أكن متأكداً من أننا نجحنا في التقاط أي شيء.

«في هذه الحالة، علينا أن نعيد إقفالها بسرعة.»

«لماذا؟»

«إذا أكثرنا من فتح العلب، ستفلت منها الأصوات والروائح.»

«آه...»

«لنفعل بسرعة.»

كانت قد جلست معي في المقعد الخلفي، وكان أبي بمفرده في الأمام. بدأنا بعلبة الروائح، ذات الغطاء الأحمر. حشرتُ أنفي داخلها ورحتُ أتشمم، بقدر قليل من اليقين.

«إذن، يا كنزي؟»

«رائحة مايونيز.»

«مايونيز؟»

«مايونيز مع تونة.»

«هكذا إذن!» صرخت أمي. «ما الذي كنتَ تفعله يا عزيزي *فيك*؟»

نظر إلينا أبي عبر المرآة العاكسة، بوجه ضاحك: «مع أنني فعلتُ كما أرشدتِني.»

«دعني أشمّ»، قالت لي أمي.

ناولتها العلبة. حشرت أنفها داخلها، ثم رفعت رأسها على الفور.

«لديك حاسة شم سيئة يا آرثر!»

«ماذا؟»

«أشمّ تماماً رائحة المطر.. وأوراق الشجر.. والغصينات اليابسة لأعشاش الطيور.»

«حقاً؟»

«نعم. حتى أنني أشمّ رائحة الطحالب.»

استعدتُ العلبة منها منزعجاً، دسستُ فيها أنفي، وركّزت. هل كان ما شممتُه رائحة تونة بالفعل؟

«إذن؟» سألتْ أمي.

كان أبي يبتسم في المرآة العاكسة.

«لا أعرف...»

فجأة، لم أعد متأكداً. هل كانت رائحة تونة؟ أم أنها بالأحرى رائحة الدُبال المميزة، تلك التي تنبعث من تلّتي بعد المطر؟

«هل شممتَها؟» سألتْ أمي.

ترددتُ من جديد، وأنفي في العلبة. كانت أنفاسي ترتد في القاع مُنتجةً بخاراً غريباً.

«أسرِع، قالت، سيتطاير كل شيء.»

ناولتُها العلبة، بشيء من التردد.

«هل نجح أبوك؟» سألتْ.

«أعتقد...»

«هل شعرتَ برائحة القطرات؟»

«رائحة التراب.»

أحكمت الغطاء مجدداً فوق العلبة، بشعور من الرضى. وما إن همت بوضع العلبة في سلّتها، حتى صرختْ وجعلتني أجفل:

«هكذا إذن! شيء لا يُصدَّق!»

حتى أبي جفلَ في مقعده الأمامي: «ماذا؟ ما الذي جرى؟»

«*فيك* يا عزيزتي! ألم أطلب منك أن تكون حذراً؟»

«ماذا؟»

«لقد حبستَ غيمة!»

كانت أصابعها تشير إلى سحابة قطْنية بيضاء، استقرت داخل العلبة التي دسستُ فيها أنفي قبل ثوانٍ.

«يجب إخراجها!» صرختُ مصعوقاً. «بسرعة يا أمي! يجب إطلاق سراحها!»

نزعت أمي غطاء العلبة، فتحت زجاج النافذة إلى يمينها، وأخرجت العلبة من الفتحة. مددتُ جسدي إلى أقصى ما أستطيع، نحوها، كيلا يفوتني شيء، وكان الحزام يحزّ رقبتي. سألتها بقلق:

«هل تم الأمر يا أمي؟ هل هربتْ؟»

«نعم. تم الأمر.»

وضعت العلبة ثانيةً فوق ركبتيها، وأحكمت فوقها الغطاء.

«يجب ألّا تتطاير بقية الروائح.»

كانت سحابة الضباب الأبيض قد تلاشت.

ألصقتُ وجهي على النافذة لكي أحاول أن ألمح الغيمة الصغيرة التي أطلقناها للتو، لكنني رغم كل محاولاتي، لم أرَ سوى السيارات التي تعبر الطريق.

في ذلك المساء، وضعنا العلب الثلاث في إحدى خزائن الصالون، مع بطاقات تعريف صغيرة، ألصقتْها أمي. كُتب على بطاقة العلبة الحمراء: *روائح الغابة*، وعلى بطاقة العلبة الزرقاء *أصوات المطر والطيور*، وعلى الخضراء، *طنين ذباب*.

على مدار الأشهر القليلة التالية، كنتُ أفتح الخزانة بانتظام وألصق أذني على العلبتين الزرقاء والخضراء. لم أصل مرةً إلى اليقين بأن الأصوات الملتقَطة ليست أصواتَ السيارات في الشارع، وبأن الزقزقة

الملتقطة ليست زقزقةَ عصافيرِ حديقتنا. لكن ما بقي على حاله بالمقابل، هو ذكرى ذلك اليوم الرائع في الغابة، والسر الذي أخبرتني به أمي مساءً وهي تُغطّيني: كانت غيوم أورانوس ذات لون أخضر بحري جميل، وكانت أحياناً تحطُّ على الأرض لكي تستقي الماء. كان مشهداً نادراً يجب ألا يُفوَّت.

# 4

## اليوم الذي كاد يزيل فيه جدي ألوانَ يومٍ من أيام الأحد

بعد هذه النزهة في الغابة بفترة وجيزة، جاءت جدتي وخالتي كاسّي لتناول الغداء في منزلنا. عندما أقول «جدتي»، أعني في الواقع جدي وجدتي، لكنني أكتفي بقول «جدتي»، لأن هذا أبسط. ثم إن جدي لم يكن كثير الكلام.

كان جدي رجلاً نحيلاً قصير القامة، يرتدي دائماً كنزات سميكة جداً كما لو أنه يشعر بالبرد باستمرار. كان جدي يصلح دراجتي عند انشغال أبي، ويساعدني في تجميع أحجيات البزل ذات القطع الكثيرة، ويتفقد دوماً آليات تشغيل ألعابي كما لو أنه يبحث بأي طريقة عن شيء يصلحه. بينما كانت جدتي امرأة بدينة نوعاً ما، لكنها جميلة جداً. كانت ترتدي دائماً ثياباً مزركشة، حمراء، صفراء، خضراء، زرقاء. كانت إلى حد ما مثل طاحونتي الهوائية، ولكن في صورةِ جدتي. كانت عيناها زرقاوين، تعمل على تقَنّعُهما بالأخضر أو البنفسجي. كانت جدتي تكثر الكلام حتى عندما لا يطلب منها أحد إجابات، الأمر الذي يجعل أمي تُصعِّد التنهيد.

في ذلك اليوم، وصل جدي وجدتي بينما كنتُ على تلتي. نزلتُ عنها بأقصى سرعة دون أن أُجري العد التنازلي المعتاد: خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، صفر. الاستقبال الذي أحظى به من قبل جدي وجدتي،

كان يشبه الفوز في سباق أو احتفال بعيد ميلاد، عندما يُحمل الفائز بين الأذرع، ويُهتَف لي، ويُغمَر بالمديح:

«أصبحت أجمل من الأسبوع الماضي يا عصفوري الصغير!».

لكنني أدركتُ في ذلك اليوم، أن مهمة أمي الخاصة قد أثّرت على كل شيء.. حتى على جدي وجدتي. أخذتني جدتي بين ذراعيها وقبلت شعري، ولكن لم تكن هناك أي عبارات فرح أو إطراء. لم تكن عينا جدتي مقنَّعتين بالألوان. أما جدي، فقد بدا وكأن كنزته أكثر سماكةً وكآبة من المعتاد. كانت كنزة من الصوف رمادية اللون. لم أكن أحب الثياب الصوفية، لأنها تُسبب الحكة. كما لم أكن أحب الرمادي، لأنه ليس لوناً حقيقياً. إنه ليس مثل الأزرق.

«كنت تلهو في الخارج؟» سألتني الجدة التي خلت من الألوان.

«ستصاب بالبرد.»

«لا.»

الكبار يشعرون بالبرد دائماً، ولكن ذلك لأنهم لا يتحركون أبداً.

«توجد في تلّتي، دودةُ أرض، هل تريدين رؤيتها؟

«سنذهب لرؤيتها لاحقاً يا عصفوري. تعال.»

أخذتني جدتي من يدي. لم تكن قد أحضرت معها باقة زهور، كما لم يحضر جدي زجاجة نبيذ. في ذلك الأحد، بقي الكبار وقتاً لا نهاية له في المطبخ. كانت وجوههم غريبة وهم يتحدثون بكلام غير واضح. بدا الأمر كما لو أن كنزة جدي قد تركت أثرها على الجميع، وصبغَتْهم بالكآبة. من حين لآخر، كان أبي وأمي ينظران إليّ ويقولان:

«اذهب للعب يا آرثر! لم يحن موعد الطعام بعد.»

لكن كل ما أردت فعله هو أن آخذ جدتي لكي أريها دودة الأرض، وأن ألتقطها بطرف عصاي، وأشاهدها وهي تتلوى. بدلاً من ذلك، رحت أدور حول طاولة الصالون، أمشي من فوق الكراسي، وأسحب مفرش الطاولة، بينما يواصل الكبار كلامهم في المطبخ المجاور. بدا لي أنني سمعت اسمي، والتقطت جملةً على الفور:

«كيف بدت استجابتُه؟ هل تنوين أخذه إلى طبيب نفسي؟» تلك كانت جدتي.

«ما هو الطبيب النسفي[1]؟» سألتُ.

كنتُ أقف بباب المطبخ. ألقت أمي نظرةَ غيظٍ نحو جدتي، والتفتت إليّ بابتسامةٍ تشبه التكشيرة.

«لا شيء يا كنزي.»

«متى سنأكل؟»

«بعد قليل.»

«أنا جائع!»

«لم تصل خالتك كاسّي بعد.»

عادةً، أثناء انتظارنا للخالة كاسّي، كنا نجلس حول المائدة ويكون هناك دوماً بطاطا شيبس للقرمشة. هذا ما أردتُ أن أجيب به، لكنهم استأنفوا حديثهم كما لو أنني لم أعد موجوداً هناك. كانت شفتا جدتي مضمومتين تماماً، عادت للكلام بصوت منخفض إلى درجة وجدتُ معها صعوبة في فهم ما قالته:

«تجميل الواقع؟ كيف ذلك؟ لا أفهم...»

---

(1) الخطأ مقصود.

ابتعد جدي وأبي، وتوقفا أمام إحدى النوافذ، وبدآ يتكلمان عن الطقس في الخارج كما لو أنهما يحاولان التواري. جربتُ حظي معهما.

«أبي، أنا جائع.»

«إليك قطعة خبز. اذهب وانظر إذا كانت خالتك كاسّي قد وصلت.»

التقطتُ قطعة الخبز، لكنني لم أذهب إلى تلّتي. تريثتُ قليلاً في الصالون. كان يحدث شيء عجيب ظهيرةَ هذا الأحد، وكنت أشعر أنني إذا ابتعدتُ أكثر مما يجب عن الكبار، فإن كنزة جدي سوف تؤثِر على المنزل بأكمله، وتُزيل عنه ألوانه.

«تلطيف الأشياء؟» قالت جدتي وقد بدت كمن يبتلع شيئاً حامضاً.

أجابت أمي بصوت منخفض جداً، وردّت جدتي بما يشبه النقيق: «قصة جميلة؟ كيف ذلك؟»

أوقعتُ كرسياً أرضاً وأنا أحاول القفز من فوقه، لكن أحداً لم يسمع ذلك.

«هل أنت متأكدة من أن...»

«من ماذا؟»

«من أنها فكرة جيدة؟»

«لن يطول الأمر حتى يهطل المطر» أعلن جدي بصوت قوي، قرب النافذة.

قالت أمي: «لا توجد فكرة جيدة أو فكرة سيئة. إنها طريقتي في تقديم الأمر له، هذا هو جوهر الموضوع برمته.»

«بالطبع يا عزيزتي، كنت أقول فقط بأنه...» لم تكمل جدتي ما كانت ستقوله.

«أه... قلّما يخطئون في التنبؤات الجوية!» قال أبي بصوت حانق.

وأكملت جدتي « كنت أقول فقط بأنّه يجدر بك استشارة طبيب نفسي. توجد طرق لتقديم تلك الأمور بأسلوب تربوي..اختيار كلمات دون غيرها... مفاهيم قابلة للفهم بالنسبة للأطفال.»

هزت أمي رأسها: «لا أحتاج يا أمي، إلى طبيب نفسي لكي يعلمني كيف أربي ابني.»

لطالما استغربتُ وأنا أسمع أمي وهي تقول لجدتي «يا أمي»، لكن ذلك لم يكن غريباً هذا الأحد، لأن أمي بدت غاضبة، وبدا صوتُ أبي، عند تدخله في الحديث، مثل صوت رجل عجوز أجشّ.

«هيا يا آن-ماري، هذا ليس موضوعنا اليوم.»

خيمت لحظةُ صمت، وسمعتُ شهقةً فتجمدتُ بين كرسيين. هل كانت أمي تبكي؟ سرت قشعريرةٌ في جسدي.

«آسفة» همست جدتي بصوتٍ يتقطع. «الأمر ببساطة.. كل شيء جديد جداً، و.. كيف سنتمكن من تقبُّل ذلك، كيف؟»

سُمعت شهقةٌ أخرى. مشيتُ ببطءٍ نحو المطبخ. كان في فمي طعم مر، وقلبي ينبضُ بسرعةٍ في صدري. ليس من المفروض أن يبكي الكبار. عندما يكون العالم سوياً وغير مصاب بالسُّعار، يُفترض ألاّ يبكي الكبار. عند المغسلة، كانت الجدةُ الشاحبةُ تشهق، وأمي تمسح على ظهرها، واضعةً إحدى يديها فوق فمها، بينما يستمر الجدُّ في التحديق من النافذة. لم يرني أحد سوى أبي. فتح فمه يريد الكلام، لكن الجدة تكلمت قبله:

«لا أستطيع تقبّل فكرة أننا درسنا كل الخيارات، وأنه لم يعد هناك شيء يمكن فعله. لا أستطيع تقبّل فكرة أن عليك الرحيل.»

«آرثر!» صرخ أبي بصوت عالٍ.

عندها، التفت جميع الكبار إليّ: جدتي ودموعها، وأمي وشهقاتُها خلف يدها، وأبي شديد الشحوب، وجدي بسترته الرمادية اللعينة.

«ما الذي تفعله هنا يا بني؟» سأل أبي. «ألم يكن من المفترض أن ترصد قدوم الخالة كاسي؟» مكتبة سُر مَن قرأ

تنقلت عيناي المتسائلتان من وجه إلى آخر. أبعدت أمي يدها عن فمها وهي تبتسم لي بذلك الهيئة المخيفة، نفسها. كانت جدتي تمسح عينيها بسرعة، كما لو أنها لا تريدني أن أرى دموعها. كان جدي يحدق في الخزائن. لا بد أنه يفكر بما يمكن إصلاحه في المطبخ.

«أمي؟

«نعم، يا كنزي.»

«هل جدتي لا تريدكِ أن تذهبي إلى الفضاء؟»

أوشكتُ أن أعيد طرح سؤالي، لأن أحداً لم يجبني. بدا كأنهم قد تحولوا جميعاً إلى تماثيل.

«إلى الفضاء؟» سألتْ جدتي أخيراً، كأنها استيقظت من نومٍ طويل.

«إلى أورانوس، قلتُ موضحاً.»

«أوه!» شهقت جدتي.

أضفت: «إنه سر، لكن أمي قالت بأنك أنت والخالة كاسي وأنا، سوف نكون على علم به. وأبي أيضاً بالطبع، وجدي أيضاً.»

«أوه»، كررتْ جدتي.

لم يعد يصدر عنها سوى تأوهات من هذا النوع، هي التي لم تكن تتوقف عادةً عن الكلام.

«صحيح يا آرثر» تدخلت أمي. «جدتك لا تريدني حقاً أن أذهب إلى أورانوس.»

«لماذا؟»

«لأنها لا تعلم بعدكم هو رائع. إنها تعتقد بأن الطقس هناك يكون طوال الوقت بارداً ومعتماً. وتعتقد بأنني سأشعر بالوحدة والحزن. وأنت تعرف أن هذا غير صحيح.»

«إنه غير معتم يا جدتي، يوجد هناك سبعة وعشرون قمراً! وشجر الأيائل! وغيوم تحط على المسطحات الجليدية لكي تشرب.»

«أه...؟»

«وصلت خالتُك كاسّي!» قال جدي فجأةً وهو يرفع سبابته.

وضع أبي يداً فوق كتفي، ودفعني باتجاه الصالون: «أظن، يا أرثر، بأنني سمعتُ نباح كلب كاسّي»

بالفعل، بدا لي بأنني سمعت نباح ديسيبيل. لم يكن ديسيبيل ينتبه للأشياء في طريقه، وأحياناً يطيح بأصص الزهور، ويتسلق المرتفعات، لذلك كنت أشعر بالقلق لفكرة وجوده في الخارج، قريباً من تلّتي حيث توجد دودتي الأرضية الهشة للغاية. كنت أخشى أن يلتهمها في قضمة واحدة.

«آرتورو! ها هو أرتورو الحبيب!» قالت الخالة مبتهجة. كنت سعيداً برؤتها. ابتسمت، وشعرها يتدلى من قمة رأسها على شكل شجرة نخيل. هرعتُ مباشرةً إلى ذراعيها الممدودتين.

«تعال إلي يا أرتورو!»

رفعتني في الهواء، بينما كان ديسيبيل يركض حولنا وهو ينبح. شعرتُ أخيراً بأن الأمور عادت كما في السابق.

«إلى أين تركض يا أرتورو؟»

بالكاد أعادتني إلى الأرض، حتى طرتُ نحو تلّتي، وديسيبيل يلحق بي.

«تعالي!» قلتُ. «تعالي لأريكِ دودتي الأرضية!»

في أعلى التلة، كانت هناك عصا الراعي الخاصة بي. لم أكن راعياً، لكن كان لدي عصا طويلة أستخدمها في أشياء عديدة: في المشي، ورسم دوائر في الحصى، وضرب الأغصان، والتقاط دود الأرض. أمسكتُ بها، واتخذت وضعية القرفصاء في الموضع الذي كانت فيه دودتي قبل لحظات.

«ماذا لديك هنا؟»

ولكن الدودة كانت قد اختفت. أخذتُ أدق الأرض بغضب، وألقيت بعصاي بعيداً، أبعد ما يمكن.

«ما الذي يحدث يا أرتورو؟»

لم أعد أعرف حقاً. لم يختفِ الطعمُ المر تماماً من فمي، وأنا أتصور الدموع فوق خدي جدتي، وأسمع وشوشات الكبار وهم يتهامسون في المطبخ، وأشعر أيضاً بذلك الثِّقل العجيب في الهواء، كأن العاصفة قادمة، ولكنها لا تأتي.. لم أكن أملك الكلمات للتعبير عن ذلك. كنت أشعر بأنني في حالة غريبة، لم أكن غاضباً تماماً، ولا حزيناً تماماً، ولا قلقاً تماماً، بل كنت أشعر بمزيج من ذلك كله.

«ما الذي يحدث؟» سألتْ الخالة كاسّي من جديد. بقيت أمامي في وضعية القرفصاء، بوجهها الجميل المليء بالنمش. حاولتُ عندها، بكلماتي الطفولية، أن أعبر لها عن الضيق الذي أشعر به:

«الدودة اختفت.»

«لا بد أنها انضمت إلى عائلتها.»

«وجدَّتي لم تجلب معها باقة أزهار.»

«يا إلهي! ما قولك أن نذهب أنا وأنت لنقطف بعضاً منها؟»

أشارت لي نحو الحديقة التي لا يزال فيها بعض من زهور الهندباء، ولكن لم تكن تلك هي المشكلة حقاً. هززتُ رأسي بالرفض.

«أمي تغصّ بالشهقات، وجدتي تبكي، وصوت أبي مثل صوت عجوز، وجدِّي...»

«ما به جدك؟»

«جدي أفسدَ كل شيء.»

«ماذا فعل؟»

رحت أحدق في عيني الخالة كاسّي العسليتين، الشبيهتين بعيني أمي. عينان جامحتان ببريق ذهبي مثل نجوم متلألئة. قلتُ بجدية:

«لقد أزال بكنزته الرمادية، كل ألوان البيت، وأزال حتى ألوان السماء، انظري.»

أشرتُ لها إلى السحب الرمادية السميكة التي تتراكم فوق رؤوسنا.

«هل تعتقد بأن كنزة جدك الرمادية هي السبب في ذلك؟»

هززتُ كتفي. لم أعد أعرف. لكنني لم أر تفسيراً آخر. كنتُ أدرك على نحو غامض بأن مهمة أمي الخاصة قد شوَّشت حياتنا اليومية، لكنني لم أر كيف يمكن لهذه المهمة أن تسبب الحزن لجدتي أو لأيٍّ كان. كانت تسحرني أنا.

«حسناً، أتدري ماذا؟... المسألة ليست معقدة، أعلنت كاسّي. يكفي أن نعيد الألوان إلى هذا اليوم.»

«كيف؟»

«ولكن، بأقلام تلوينك طبعاً!»

لم تعد عيناي المذهولتان تفارقان الخالة كاسّي.

«هل سنلوّن كنزةَ جدّي؟»

«ممم، لا أظن بأنه سيوافق.»

«كيف سنتصرف؟»

«سنحولها إلى كنزة مهرّج.»

«بماذا؟»

«سنغطيها برسوم من كل الألوان. ما رأيك؟»

قرصت خدّي، فبدأتُ أبتسم.

«هل نذهب يا أرتورو؟»

«لنذهب!»

نهضتْ ومدت لي يدها. كانت راحة يدها حارة تماماً.

«هل ستتوقف جدتي بعد ذلك عن البكاء؟»

«نعم. بعد ذلك، سوف تزول لعنةُ الكنزة الرمادية.»

تلك كانت قوة الخالة كاسّي وأمي، في مقدرتهما على تحويل أيام الأحد الرمادية، إلى أقواس قزح ملونة.

في يوم الأحد ذاك، سمحت لنا أمي أن نتناول طعامنا في غرفة النوم.

«بشكل استثنائي»، أوضحتْ.

أحضرت لنا، أنا والخالة كاسي، صينية كبيرة عليها طبقان مليئان بالغراتان، وكأسين من شراب الليمونادة. وضعتها فوق الموكيت، بين الأوراق المقصوصة وأقلام التلوين. ثم سألتْ:

«هل يسير هذا المشروع السري إلى الأمام؟»

كنتُ مستلقياً على بطني، وقدماي تواجهان السقف، أجتهد في تلوين بالون رسمَتْه لي الخالة كاسّي، باللون الأزرق. كانت الخالة كاسي تجلس خلف مكتبي المصغَّر، وأخذت ترسم الأشكال التي أطلبها: زهرة عباد شمس، كوكب أورانوس، دلفين، شجرة نخيل، ببغاء، ثم تلقي بها إلي، فتحلِّق الأوراق لحظات قبل أن تحط على الأرض.

«ماذا أيضاً يا أرتورو؟ سيارة؟ ما رأيك بسيارة؟»

«شاحنة إطفاء.»

«حسناً، لتكن شاحنة إطفاء. شيء من اللون الأحمر لكنزة جدّك.»

كانت الخالة كاسّي أمي إلى حد ما، ولكن في صورة خالة. كانت أمي أكبر عمراً، ولكنها أقصر منهت قامة، ويبدو أن هذا شيء قابل للحدوث. أمي والخالة كاسي متشابهتين في الوجه المليء بالنمش، والشعر البني الفاتح. تقول جدتي بأن لهما طباعاً متطابقة. لم تكن الخالة كاسي تضع خاتماً في إصبعها، بل ترتدي أساور متعددة الألوان حول معصميها. لم تكن تحمل حقيبة يد، بل حقيبة عجيبة لها حزام كتف كبير. لم يكن لها زوج، ولكن كان لديها ديسيبيل. تعيش في شقة مصغَّرة ـ تقول أمي بأنها تسمى استديو ـ ولها حديقة مصغَّرة محاطة بحواجز، يستطيع ديسيبيل المشي فيها، ولكنه لا يستطيع الركض. كانت الخالة كاسي لا تزال في المدرسة. سوف تعمل لاحقاً كفنانة في الوشم، وتلك المهنة هي نفس مهنة أمي تقريباً، باستثناء أنها بدلاً من أن ترسم في الكتب، كانت الخالة كاسي ترسم على جلود الناس! لو كان عليّ يوماً أن أختار أحداً يكون أمّي في أوقات العطلة، أو في حال سافرت أمي لوقت طويل ـ إلى الفضاء مثلاً ـ فإنني سوف أختار الخالة كاسّي.

هذا ما كشفته لها في ذلك الأحد، وأنا ألوِّن بالوني باللون الأزرق.

« لا أحد يحل محل الأم»، اعترضت الخالة كاسي بلطف.

كانت أمي لا تزال في الغرفة، قرب الباب، حاملةً الصينية الفارغة بين يديها.

«عندما لا يكون السيد موجوداً، يوجد بديل له.»

«الأمر مختلف مع الأم.»

استدرت نحو أمي لكي أسألها عن رأيها، ولكنها سبقتني:

«أنا أرى أنه شيء جيد التفكير بأم بديلة، من الحكمة دوماً اتخاذ تدابير احتياطية لفقدان أي شيء يمكن فقدانه»

توقفت كاسي عن الرسم. ساد صمت طويل إلى درجة أنني رفعتُ رأسي عن الورقة التي ألوّنها. كانت أمي قد اقتربت من المكتب الصغير الذي جلست عليه الخالة كاسي، وراحت تحدق إليها من ظهرها.

«سأغيب لوقت طويل في هذه الرحلة إلى الفضاء. يجب أن يتولى أحد، إلى جانب الأب طبعاً، العناية بآرثر.»

أسقطت كاسي قلمها، أرضاً، لكنها لم تقم، لا هي ولا أمي، بالتقاطه.

«رحلة إلى الفضاء؟» قالت الخالة كاسي.

«نعم.»

عدتُ لتلوين بالوني. أضفتُ لمسةً من الأصفر إلى كل ذلك الأزرق. أمسكتُ بقلم الرسم وأزلتُ عنه الغطاء.

«أمي ذاهبة إلى أورانوس» أخبرتُ الخالة كاسي.

«إلى أورانوس!» كررت الخالة كاسي بصوتٍ غريب، كأنها لا تصدقني.

«نعم»، أكدتْ أمي.

وضعتُ الأصفر على خطوط البالون. دفعَني الصمتُ الذي ساد، إلى رفع رأسي من جديد. وجدت أمي ما تزال واقفة والصينية بين يديها، والخالة كاسي لم تستأنف الرسم بعد. عندما باغتتْني أمي وأنا أنظر إليهما، تنحنحتْ كأن هناك شيئاً عالقاً في حلقها، واستدارت الخالة كاسي فجأةً لتكشف لي عن وجهها. كانت تبتسم كاشفةً عن أسنانها.

«يا لها من قصة مدهشة! ستذهبين إلى أورانوس؟»

«نعم» أكدت أمي.

«إنها مهمة سرية» أخبرتُها.

«إنكِ تدهشينني!» هتفت الخالة كاسي. «ماذا ستفعلين على كوكب أورانوس؟ ستحاولين أن تكتشفي إذا ما كان هناك ماء أو... أشكال حياة؟»

«يوجد ماء وحيوانات على كوكب أورانوس،» أعلنتُ.

«حقاً؟ لم أكن أعرف ذلك...»

«كُتب هذا في الموسوعة التي قرأتها لي أمي. هل تريدين رؤيتها؟»

«لا فأنا أصدقكَ مئة بالمئة، يا أرتورو!»

أضفت: «يوجد مسطحات جليدية وطيور بطريق وحلزونات جليد...»

بدأت الخالة تتعجب: «هكذا إذن!»

حركت الخالة كاسي في المقعد الصغير الخاص بمكتبي.

«ما الذي ستفعلينه هناك؟» سألتْ أمي. «انتظري، دعيني أحزر! سوف تعتنين بحيوانات كوكب أورانوس؟»

نهضتُ تاركاً أقلامي لكي أقترب منهما. ربتُ على ركبة الخالة كاسي لكي تفسح لي مكاناً، وأويتُ إلى حجرها.

« أنسيتي أن أمي ليست طبيبة حيوانات؟» أجبتُ.

«صحيح، معك حق.» أطلقت ضحكةً وقالت وهو تضمني: «أنا أنسى ذلك دائما.»

ابتسمت أمي ابتسامة ملؤها الطيبة والتفهُّم. لم أُبعد ناظري عنهما، وكنت أنقله من إحداهما إلى الأخرى.

«ستكونين سكرتيرة إذن...؟» تنحنحت الخالة كاسي وسألت أمي. «هل يحتاج رئيس أورانوس إلى سكرتيرة؟ هل يوجد رئيس على كوكب أورانوس؟»

نظرتْ أمي إليّ تطلب رأيي. فقطبتُ حاجبي، كنتُ مقتنعاً أن الجواب هو لا.

«ملك؟» استمرتْ الخالة في التساؤل.

بدت لي هذه الفكرة أكثر احتمالاً، لكن أمي هزت رأسها نافيةً: «لا أحد يحكم في أورانوس. جميع الكائنات حرة، وتعيش كما يحلو لها.»

«هكذا إذن!» هتفت الخالة كاسي: «لا بد أن الحياة هناك جميلة جداً.»

وافقتُ بهزةٍ من رأسي.

«ليس هناك أحد يحكم» تابعت أمي: «لكن هناك الحافظ.»

«من هو؟»

«سيدٌ يحمي جميع كنوز أورانوس والكون كله.»

«أية كنوز؟»

«الحيوانات، المسطحات الجليدية، الأمطار الجليدية، شجر الأيائل، وأشياء أخرى كثيرة، لم أكشف لك عنها بعد يا آرثر! يوجد هناك الكثير من الكنوز العجيبة!»

كنت أنظر إليها بفم نصف مفتوح، وأتشبَّع متلذذاً بكلماتها.

«هذا الحافظ لا يقوم فقط بحراسة كنوز أورانوس، بل لديه القدرة على صنع النجوم في سماء أورانوس.»

«ماذا؟»

«السماء وكل ما فيها من صنعه.»

رحت أتزحزح فوق ركبتيّ الخالة كاسي لكي أجلس أقرب إلى الطرف، أقرب إلى أمي، ولا أفوت شيئاً من تجلياتها.

«أتَرى السماء يا أرثر؟ إنها زرقاء صافية في الطقس الجيد، وزرقاء مائلة إلى الرمادي عندما تمطر، وزرقاء مائلة إلى السواد في الليل. في الفجر يشوبها الزهري أو البرتقالي، وأحياناً الأحمر.»

أومأتُ موافقاً.

«إنه هو مَن يلونها كل يوم، بفرشاة الكون العملاقة، ويمحيها بممحاة الكون العملاقة، ويرسم أشياء جديدة لا نراها.»

لبثتُ مذهولاً، عاجزاً عن الكلام.

«والغيوم» تابعتْ أمي الحديث عن الحافظ «هو أيضاً من يبتكرها. يقوم كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة، بعمل غيوم جديدة، ويشكِلها بأشكال مختلفة كيلا يصاب الناس الذين يراقبونها أبداً بالملل من النظر إليها.»

قفزتُ من فوق ركبتي الخالة كاسي، لكي ألتصق تماماً بحضن أمي. مرت بيدها في شعري، وأغمضتُ عيني.

تابعت أمي: « وهو يصنع النجوم أيضاً، بالطبع. نجوم الشُّهب هي الأصعب في الرسم، فهي تتحرك طوال الوقت، لذا يجب الانتهاء من رسم أجزائها قبل أن تنفلت من بين أصابعك»

استعدتُ، وأنا أدس أنفي في كنزة أمي، القدرة على الكلام:

«ومن رسم الشمس؟»

«إنه هو أيضاً، وكل شيء هناك هو صنعه»

وافقتُ، وعلى شفتي ابتسامة في غاية الهدوء والرضى.

«لماذا يخفي الشمس وقت الليل»

«لكي يجعلها تشرق على مكان آخر من الأرض»

قالت الخالة كاسي من خلفي متسائلةً:

«وماذا بشأن أقواس قزح؟»

«إنها هي أكثر الأشياء سهولة لديه! لكن ابتكارها صعب جداً علينا»»

«بكل تأكيد» وافقت كاسي. وأطلقت ضحكةً خفيفة، وكذلك فعلتُ أنا. لقد وجدتُ ذلك كله رائعاً.

«وماذا عن الطيور يا أمي؟» سألتُ وأنا أنفصل عن كنزتها. «هل هو المسؤول أيضاً؟»

«بالتأكيد يا كنزي، هو المسؤول. كل طير وكل حشرة في الكون، كل كائن يطير ويعيش في السماء، هو من صنعه.»

«والخنافس المنقّطة؟»

«الخنافس المنقّطة أيضاً. «

«والفراشات؟»

«هي أيضاً. ولهذا السبب، تبدو جميلة جداً، ومليئة بالألوان.»

لم أكن أصدق أنني عشت كل هذا الوقت دون أن أعرف ذلك.

«ولكن للأسف» قالت أمي بحزن: «أنه وضع حارسًا في أورانوس، وهذا الحارس يتقدم في العمر. إنه يعمل على أورانوس منذ ألف وخمسمائة سنة. وأعطاه الحافظ القدرة على صنع النجوم وتلوين السماء اسمه حارس العجائب»

شهقتُ مندهشاً، واتّسعت عيناي: «حارس العجائب، ياله من اسم.. يلون السماء ويصنع النجوم!»

«أجل، الزمن يمر هناك بشكل مختلف» أوضحتْ أمي. «لقد حان وقت تقاعده على أية حال، وخمّنا ماذا؟»

«أوه!» قالت الخالة كاسّي من خلفي. «أظن بأنني عرفت.» استدرتُ نحوها. كانت تحدق مبتسمةً، إلى أمي وقالت: «أنتِ من ستَخلفينه، أليس كذلك؟»

أومأت أمي مؤكدةً ببطء شديد، مع إيحاء بالفخر. « ومن أجل خلافته» خفضت صوتها وقالت: « الأمر يحتاج إلى شخص جيّد في الرسم، بل حتى بارع جداً فيه، وفي التعامل مع الألوان بمهارة.»

«هذا هو عين العقل» هتفت الخالة كاسي.

«لكن المفاجأة» قالت أمي وصمتت قليلا، لتشعرني بالفضول أكثر، فأتبعت: « هي أن حارس العجائب يحب القراءة كثيراً في أوقات فراغه، على ما يبدو. منذ شهر، انطلقت قافلة خاصة من الأرض نحو الفضاء لإمداد الحارس بمؤونة من الألوان والفرش. كان الطيار قائد القافلة الفضائية، قد ترك على لوحة التحكم أمامه، نسخةً من كتاب *زازو، السلحفاة التي لم ترغب بحياة التكاسل*. لمح الحارسُ الكتاب. ولأنه لم يبقَ لديه ما يقرأه، عرض على الطيار أن يبادله كتابه مقابل اثني عشر حلزوناً من حلزونات الجليد. كان الطيار شخصاً شرهاً يحب الأكل،

ويعشق حلزونات برغونيا، لكنه كان يفضِّل عليها حلزونات الجليد مع زبدة البقدونس القطبي. لذا، ودون تردد، ترك له نسخته من رواية *زازو، السلحفاة التي لم ترغب بحياة التكاسل*. يبدو أن حارس العجائب قرأها في اليوم نفسه. كان منغمساً في قراءتها إلى درجة نسي معها أن يلون السماء بلون الليل. هكذا بقيت السماء زرقاء صافية حتى حان منتصف الليل»

«آها» صاحت الحالة كاسي: «أتذكّر أن رئيسنا جعَلَنا نؤخِّر الساعة! هل تتذكر يا آرثر؟»

أومأت برأسي وأنا في حالة من الذهول، وتذكرت أن أبي طلب مني في إحدى الأمسيات أن أعيد عقارب الساعة رقماً إلى الوراء. هذا هو أصل المسألة إذن...

قالت أمي بزهو، وهي ترفع أنفها: «باختصار لقد وقع حارس العجائب تحت تأثير رسوماتي، وطلب أن يلتقي بي»

«هل جاء إلى الأرض؟» سألت باستغراب.

«نعم.» أجابت: «هل تتذكر كل تلك الأيام التي لم أستطع فيها اصطحابك من المدرسة، بسبب مواعيدي؟»

«نعم...»

«كان حارس العجائب يُجري لي اختبارات.»

«اختبارات؟»

«كان عليّ أن أرسم نجوماً، وغيوماً، وأشكالاً من غروب الشمس، حتى آلمني رأسي يا كاسّي»

كانت الخالة كاسّي تصغي وهي جالسة على مكتبي، مسندةً ذقنها إلى راحة يدها، وقد ظهرت تجاعيد صغيرة في زاويتي عينيها. بدت منغمسة، مثلي تماماً، في قصة أمي.

«هل نجحتِ في الاختبار؟» سألتْ.

«نعم. لقد قرر حارس العجائب أنني سأكون خليفته، وأنني جديرة بذلك.»

حاولت أن أقيّم كل ما كشفته لنا أمي للتو. إنها سوف تذهب إلى كوكب أورانوس لكي تسهر على طيور البطريق، وترسم النجوم. سوف تبتكر غيوماً وتجمع زهور الثلج التي تُخلفها الأمطار الجليدية. بكلمات خاصة بالكبار، عبّرت الخالة كاسي أخيراً عن أفكاري: «نستطيع القول بأنها فرصة ذهبية! لا يحظى بها الشخص إلا مرة واحدة في العمر.»

«هذا صحيح.» قالت أمي: «أن أحصل على فرشاة الكون العظيمة.. يا له من شرف»

دسستُ وجهي صدر أمي وأنفي منغمس في كنزتاه. أخذتْ تمسح على مؤخرة عنقي، وأنا أحاول أن أتخيل الأشياء الرائعة التي يمكن لأمي أن ترسمها لنا.

«فراشات صفراء؟»

«ماذا، يا كنزي؟»

«هل يمكنكِ أن ترسمي لنا فراشات صفراء؟»

«بالطبع!»

«وأمطاراً من الشهب؟»

«سأرى ما يمكنني فعله.»

«أتمنى أن ترسمي لنا بضع أقواس قزح جميلة في أيام العطلات» أقالت الخالة كاسي.

«سأحاول أن أرسم منها كلما تمكنتُ من ذلك.»

«أريد حمامات زرقاء؟» هتفتُ. «أريد أن ترسمي حمامات زرقاء!»

«لمَ لا.. سأبذل قصارى جهدي.. حسب أنابيب الألوان الكونية التي ستتوفر لي في مرسمي في أورانوس»

تبادلتا الابتسامات، ورحتُ أدس وجهي في صدرها بلهفة، وعيناي مليئتان بالنجوم.

في ذلك الأحد، نسينا أن نغطي كنزة جدي بالرسومات متعددة الألوان. أساساً لم يكن ذلك ضرورياً. أدَّتْ رسوماتُ الخالة كاسّي وألوان أقلامي الفلوماستر، مفعولَها، وملأت غرفتي ورأسي بألف لون.

إلا إذا كان ذلك بفضل قصة أمي...فهي والخالة كاسي تتمتعان بالقدرة على تحويل أي يوم رمادي إلى قوس قزح.

# 5

## اليوم الذي قمنا فيه أنا وأمي بتحرير القاربين

بعد وقت قليل، جهزت أمي حقيبة لكلينا، وأخبرتني أننا سنقضي بعض الوقت في الكوخ الخشبي القائم على ركائز. هذا الكوخ الخشبي هو أجمل مكان على وجه الأرض، بل أجمل من إيطاليا. كان يشبه تلّتي قليلاً: عندما نكون في الكوخ القائم على ركائز، نستطيع رؤية كل شيء حولنا ونشعر بأننا محميين من بقية العالم.

كان الكوخ منزلاً صغيراً اشترته أمي عندما كانت تعمل في رسم القصص، ووقّعت عقداً لرسم قصة *زازو، السلحفاة التي لم ترغب بحياة التكاسل*. قالت إن رئيسها (الرئيس السابق، وليس الرئيس الذي يجعلها تكتب له رسائله بدلاً من أن يكتبها بنفسه) أعطاها شيكاً ضخماً، وقررت أن تهدي نفسَها ركناً في هذه الجنة. كانت جنة أمي هي بحيرة الطاووس. في البداية، ظننت أن البحيرة سُميت بهذا الاسم لأن طاووساً يعيش فيها، لكن أمي أوضحت لي بأن الأمر ليس كذلك. لقد أطلق على البحيرة هذا الاسم لأن لونها الأزرق فريد حقاً، إنه على درجة من العمق تذكّر باللّون الأزرق في ريش الطاووس.

كانت بحيرةً كبيرة، ذات سطح أملس تماماً، كأنه لوحة فنية. حول البحيرة، توجد أشجار صنوبر عالية وحجارة بيضاء. كما توجد أعشابٌ طويلة أيضاً. في البحيرة، كان هناك قاربان متواجدان دوماً في المكان، مع أننا لم نرَ أحداً يركبهما إطلاقاً. قالت أمي بأنه لا يحق

لنا استخدامهما، وبأنهما ملكٌ لشخص ما حتماً، حتى لو لم نرَ ذلك الشخص من قبل. كانا قاربين أخضرين، بلونٍ أخضرٍ غريبٍ داكنٍ مثل لون قشرة الأفوكادو. بقيا دوماً بلا حراك فوق سطح البحيرة.

اعتاد أبي وأمي أن يترددا كثيراً إلى كوخ الركائز الخشبي، عندما كانا أصغر سناً، وقبل أن أتكوَّن في رحم أمي. كانت أمي تبقى هناك لأسابيع متواصلة، جالسةً في الشرفة المطلة على البحيرة، وهي ترسم. يبدو أنها عندما تجلس هنا، تخطر لها أفكار كثيرة، وتشعر بسعادةٍ لا تعرفها إلا طيور العندليب.

«لماذا طيور العندليب؟» سألتُ ذات يوم.

«لأنها، إلى جانب الشحارير، هي الطيور الوحيدة التي تواصل التغريد ليلاً. هذا يعني بالضرورة بأنها سعيدة.»

كانت أمي تعمل، جالسةً على الشرفة، مثلما يجثم عندليب على غصن، وينضم إليها أبي في نهاية كل أسبوع، حيث ينطلق فور انتهاء يوم عمله، حاملاً معه قطعة ملابس داخلية واحدة، وفرشاة أسنان في الجيب الخلفي لبنطاله الجينز، لا غير. يبدو أنه تم صُنعي هنا، في عطلة نهاية أسبوع من شهر يونيو، عندما تفتّحت أزهار السوسن الصفراء على الضفاف، وغطى اللونُ الأصفرُ العشبَ. كان منظراً جميلاً.

«تلك كانت علامة» قالت أمي «عرفتُ بأنكَ ستتشكل في بطني، ذلك اليوم»

بعد ولادتي، وجدت أمي وظيفة سكرتيرة، ولم يعد لديهما وقت كافٍ للمجيء إلى الكوخ الخشبي، ولا حتى في كل نهاية أسبوع كما في السابق. أمضينا فيه عدداً من العطلات الصيفية، وعدداً من عطلات الربيع أيضاً، فقط، لأن قضاء جميع الإجازات هناك بات أكثر صعوبة

بعد قدومي ـ كما قالت أمي ـ إذ لم تكن هناك غسالة ملابس في الكوخ، ولا غرفة لي، ولا سرير أطفال مزوّد بقضبان، ولا ما يكفي من الماء الساخن.

في ذلك اليوم، أول أيام عطلة عيد الفصح، حزمت أمي حقيبتنا وأخبرتني بأننا ذاهبان إلى الكوخ الخشبي للاستمتاع بقدوم الربيع.

«وماذا عن أبي؟» سألتُها.

«سيلحق بنا في نهاية الأسبوع.»

كان على أبي أن يعمل، ولم يكن لديه إجازات. بينما كان وضع أمي غامض بالنسبة لي، لكنها لم تعد تذهب إلى مكان عملها إطلاقاً منذ أن كلِّفت بتلك المهمة في الفضاء. بالمقابل، كانت ترسم كثيراً. أظن أن عملها الآن هو أن ترسم وترسم وترسم، لكي تنجح في خلافة حارس أورانوس.

بطبيعة الحال، لم أكن أستطيع أن آخذ معي الكثير من الألعاب.

«لا عليك، سيكون لديك ما تنشغل به هناك. لن تحتاج إلى مضمار سباق سياراتك الصغيرة، ولا إلى مرمى كرةِ قدمك، الصغير.»

تمكّن أبي من تعليق دراجتي ثلاثيّة العجلات، على سطح السيارة، ومدت لي أمي غطاءً في المقعد الخلفي لكي أنام أثناء السفر، ووضعت قرصاً مضغوطاً في جهاز الموسيقا بالسيارة.

نمتُ مرتين أثناء الرحلة. مرة حلمتُ فيها بـ ديسيبيل، ومرةً استيقظتُ دون أن أتذكر شيئاً. عندما فتحت عيني في المرة الثانية، كانت أمي تستمع وهي تبكي إلى موسيقى على آلة الكمان، تسبب انقباضاً في المعدة.

«أنت حزينة، يا أمي؟»

نظرت إلي في المرآة العاكسة. كانت عيناها تلمعان كأن الشمس أبهرتهما.

«لا يا كنزي. أبكي لأن الموسيقى جميلة»

«أه. ولكن الأشياء الجميلة لا تجعلنا نبكي، بل نبكي بسبب الحزن.»

«ليس دائماً. أنا مثلاً، بكيتُ حين علمتُ بأنكَ تشكلتَ في بطني. لأنني كنت سعيدة.»

«آه..»

لبثتُ متشككاً. مسحت أمي دموعها، وأوقفت الموسيقى. شعرتُ بأنني أصبحت أتنفس بشكل أفضل قليلاً. آلة الكمان ذات تأثير غريب.

«بكى أبوك عندما رآكَ لأول مرة في جناح الولادة.»

«لا، غير معقول. أبي لا يبكي أبداً.»

«عندما رآكَ، بكى. قال بأنه لن يستطيع بعد الآن أن ينام هانئاً. لأن واجبه يفرض عليه أن يسهر عليك في كل لحظة من حياته، ليلاً ونهاراً. لكنه قال أيضاً بأنه لن يضحك ثانيةً كما كان يضحك في السابق. وعندما يضحك الآن، فإن الفضل يعود لضِحكتكَ أنت.»

«ما معنى هذا؟»

«معنى هذا بأن أباك استعاد روح الطفولة من خلالك.»

«حسنًا، أنا جائع.»

ابتسمت أمي، مدت ذراعها إلى الوراء حتى لامست وجهي، ومسحت على خدي.

«سنصل قريباً يا كنزي.»

قبل الوصول إلى الكوخ الخشبي القائم على ركائز، كانت هناك علامات تشير إلى المكان: الكثير من الحصى، والكثير من الحفر،

وأشجار التنوب الطويلة التي تحجب الشمس. أوضحت أمي بأن هذه كانت دائماً العلامات التي تشير إلى أننا اقتربنا من الجنة، نباتات كثيرة وأسفلت قليل. كانت لا تزال تشرح لي ما هو الأسفلت عندما توقفت السيارة في العشب الطويل، وامتدت أمامنا بحيرة هائلة الاتساع، أكبر بكثير مما في ذاكرتي. كانت ساكنة، سطحها أملس كأنه زجاج مصقول. وفيها يستقر القاربان. لا شيء قد تغير. كانت الزهور الصفراء هناك أيضاً، تماماً كما في اليوم الذي شكّلني فيه أبي وأمي. ومن بين أشجار الصنوبر ظهر الكوخ بارزاً. بدا لي صغيراً جداً، أصغر بكثير مما في ذاكرتي. إنه كوخ خشبي قائم على أربع ركائز تغوص في الماء، وفيه نافذتان صغيرتان وباب. على الشرفة، ليس هناك سوى مصباح كهربائي بسيط وأصيص زهور، فارغ.

«ألا تساعدني في حمل أمتعتنا؟» سألتْ أمي.

عند ضفة البحيرة، على مسافة أبعد بكثير، كان هناك كوخ آخر بمصاريع مغلقة.

«من يسكن هناك؟» سألتُ.

«لا أعرف. أحدهم.»

طلبتْ مني أن أدفع دراجتي ثلاثية العجلات وصولاً إلى الكوخ. كان يجب العبور فوق جسر صغير عائم للوصول إلى شُرفتنا، ثم إلى باب كوخنا. على أرضية الشرفة، هناك قوارير زجاجية وأكياس رقائق بطاطا، فارغة ومتروكة.

«من أكَلَ هنا؟ هل هو «أحدهم»؟

ابتسمت أمي ومررت يدها في شعري. وأثناء بحثها عن المفتاح الصحيح في سلسلة المفاتيح، أوضحت لي أنه ربما أقيمت حفلة صغيرة

هنا، من قبل «أحدهم»، ظناً منه، على الأرجح، بأن الكوخ مهجور. تساءلتُ وقد ازدادت حيرتي: هل الـ «أحدهم» هذا، هو حيوان، أم إنسان، هل هو طفل، هل هو من الأقرباء؟ كان اسم «أحدهم» غريباً حقاً...

كانت تفوح من الكوخ رائحة تشبه رائحةَ خزانة غرفتي في البيت. رائحة خشب، وغبار، وأسرار. كان الجو في الداخل بارداً جداً ومعتماً جداً. لكن أمي فتحت المصاريع، واكتشفتُ غرفتين: في الغرفة الأولى، وهي الأكبر، ستائر حمراء جميلة على النافذة، وموقد للطهي، وحوض لغسل الأطباق، وطاولة، وثلاثة كراسي. كانت هناك أيضاً خزائن حائط، وتقويم قديم على الحائط. رأيتُ رسمة طفل، فأخبرتني أمي بأنني أنا الذي رسمتُها عندما كنت أصغر سناً. يظهر فيها رجل أصابع يديه عبارة عن عيدان وجذعه دائري. بدا لي احتمال أن أرسم شيئاً كهذا، احتمالاً يصعب تصديقه.. الغرفة الثانية كانت غرفةَ نوم مجهزة بسرير كبير وفِراش طفل، على الأرض. كانت الستائر هنا بنفسجية. وجدتُ بأن البنفسجي لون غريب، لأنه نادراً ما يُرى في الطبيعة، إلا على البنفسج، الزهر الذي لم يعرف حتى كيف يجد لنفسه اسماً حقيقياً. هذا بالضبط ما كنتُ أشرحه لأمي وهي تُنقِّب داخل علبة صغيرة بالحائط. علا صوتها بـ «آه» وأضاءت مصابيح الكوخ، بينما بدأت الثلاجة الصغيرة، تحت حوض الأطباق، تُخرخِر.

«زهر الليلك بنفسجي» علّقت أمي «وكذلك زهر الغليسين، والخزامى.»

كانت تُواصل الحركة، وأخذت الآن تُدير عجلة جهاز التدفئة الوحيد في الكوخ، تحت نافذة المطبخ.

«زهرة الشُّقّار، وزهر نبات اللويزة أيضاً.»

عدنا إلى السيارة لإحضار المبرِّد الذي يضم مشترياتنا.

«ولكن لا توجد حجارة بنفسجية» قلت لأمي بنبرة حاسمة.

«هل أنتَ متأكد؟»

الحقيقة أنني لم أكن متأكداً.

«حجر الجمشت بنفسجي.» أكدّت أمي.

«ماذا سنأكل في الوجبة؟»

«لا أعرف. ما رأيك بشطيرة؟»

كانت الشطيرة وجبة الاحتفال، ووجبة الرحلات المدرسية، أو مدن الملاهي، أو أيام الصيف على الشاطئ.

«حسناً، شطيرة. ولكن لا توجد حيوانات بنفسجية.»

«أنا متأكدة من وجودها. سنبحث لاحقاً. أعدك»

حين عدنا إلى الكوخ، فرشت لنا على الشرفة بطانية لكي نجلس فوقها لتناول الطعام.

«ألا تذهب لغسل يديك قبل الأكل، يا كنزي؟»

كان حجمُ المرحاض والحِمام مضغوطاً إلى أقصى حد، لكي تتسع لهما خزانةٌ حائط بدون نوافذ، فقط كابينة دش، ومرحاض، ومغسلة صغيرة جدًا لدرجة أن يدي أبي ـ أراهن على ذلك ـ تفيضان عن الفسحة أسفل صنبور الماء.

«هل توجد حيوانات بنفسجية على كوكب أورانوس؟»

جلسنا على الأرضية الخشبية، تاركين أرجلنا تتدلى في الفراغ أسفل الدرابزين.

«نعم. هناك ديدان جليدية، لونها بنفسجي، تستطيع الزحف تحت الثلج، لكنها في الليل، تصعد إلى السطح، مُضيئةً مسطحات الجليد. إنها تضيء مثل يراعات، تُرشد المسافرين التائهين.

«أوه»

«المنارات بنفسجية أيضاً.»

«هل توجد منارات؟»

" بالطبع! وإلا كيف للسفن أن تعرف إلى أي اتجاه يجب أن تتجه؟»

«وتوجد سفن أيضاً؟ لكن لا يوجد بشر! من يقود السفن؟»

«ولماذا يجب أن يكون هناك من يقود السفن؟ أليس باستطاعتها أن تذهب حيث تشاء؟»

«هل تسير من تلقاء نفسها؟»

«مثلك ومثلي.»

بعد تناول الشطيرة، أردتُ القيام بجولة حول البحيرة على دراجتي ثلاثية العجلات، لكن أمي أعلنت بأنه وقت القيلولة.

«ولكنني لا أشعر بالنعاس» قلتُ معترضاً.

«أما أنا فأشعر بالنعاس! هل ستتركني أنام وحدي؟»

وضعتَ ملاءات بيضاء جميلة مزينة بأزهار صفراء على السرير الكبير، وأعلنَت أننا سننام معاً. ولأن أبي لم يكن موجوداً، كان على كل منا أن يمد الآخر بالدفء. أغمضت أمي عينيها وطلبت مني أن أفعل الشيء نفسه. عَددتُ بقع النمش على وجهها، ولمستُها بطرف إصبعي. كانت أمي تبتسم كل مرة ألمس فيها بشرتها.

لقد نامت طويلاً، حتى عندما أعلنتُ: «لقد اكتفيتُ من النوم يا أمي»، وبدأتُ أقفز على السرير. أصبح الجو الآن دافئاً في الكوخ.

«هل تريد الذهاب في رحلة بالقارب يا كنزي؟»

كانت أمي تقطع لي تفاحة على طاولة المطبخ.

«أي قارب؟» سألتُها.

« أحد القاربين المتوقفين.»

«القاربان اللذان بلون قشر الأفوكادو، أليسا ملكاً لشخصٍ ما؟ قلتِ بأنه لا يحق لنا استخدامهما.»

«يمكننا استعارتهما، والتعامل بحرص شديد معهما، وربطهما إلى الرصيف. لن يجد أحد ما يلومنا عليه.»

«لكنكِ قلتِ بأن...»

«لكن الكبار يقولون أشياء خاطئة أحياناً، ويُدركون بأن الحق مع الأطفال أكثر بكثير مما هو معهم. يحدث هذا أكثر مما نظن.»

وضعت شرائح التفاح أمامي.

«كنتَ على حق. هذان القاربان هنا لكي نستخدمهما. من القسوة تركهما هنا، مُقيدين بسلاسل. إنهما وحيدان وحزينان. القوارب خُلقت للإبحار.»

«مثل قوارب أورانوس؟»

«نعم، مثل قوارب أورانوس. ما رأيك أن نذهب ونُحرّر القاربين؟»

التمعت عيناي. كان يوماً خرافياً. قمتُ أنا وأمي بتحرير أحد القاربين في عصر ذلك اليوم الربيعي، بينما كانت حبوب الطلع تتطاير فوق البحيرة. أعلنت أمي أننا سنقوم في اليوم التالي بإطلاق سراح الثاني، لكي يتمكن كل منهما أن يحرّك مجدافيه التي أصابها الخدَر من قلة الحركة. أمسكت أمي بالمجدافين وطلبت مني أن أبقى جالساً فوق

مقعده الخشبي، وألّا أنهض أبداً. أخذت تجدِّف بذراعيها، وتدفع، وتسحب، والشمس تحوِّل شعرَها إلى نارٍ جميلة متوهجة.

«انظر يا آرثر، انظر كم تبدو البحيرة مسرورة! انظر كيف بدأت الحياة تدبّ فيها!»

كانت تُريني التجاعيد الطفيفة التي راحت ترتسم على سطح الماء، وبدأت تتموج بلطف.

«لماذا هي مسرورة؟ هل لأننا حررنا القاربين؟»

«طبعاً!»

لم أكن متأكداً مما إذا كانت البحيرة سعيدة، ولكنني، رغم أعوامي الخمسة، كنت متأكداً من أن أمي كانت سعيدة جداً، في عصر ذلك اليوم، وأنني أنا أيضاً كنت سعيداً.

عند المساء، أعدَّت لنا أمي حساءً يمدنا بالدفء، لأن الطقس حول البحيرة بدأ يميل إلى البرودة. وبينما كانت الخضار تُطهى وتغطي أرضيةَ الكوخ طبقةٌ من البخار، شاهدنا غروب الشمس بين أشجار الصنوبر العالية. كان ذلك شبيهاً بقوس قزح بالأصفر والبرتقالي وشيء من الأحمر، وحتى بعض الوردي الممتزج بأزرق السماء، الرمادي، وبأخضرِ الصنوبر، الكثيف. لم يكن ينقص إلا البنفسجي. البنفسجي من جديد...

«هل الحافظ هو مَن يفعل هذا؟ سألتُ.»

«إنه هو بالفعل.»

في وقت لاحق، وبينما كنتُ أتناول طبقي من الحساء، اتصلت أمي بأبي. قال أبي بأن شعور التلَّة بالوحدة بدوني يجعل الحراسة عملاً صعباً، ولكنها تتدبر الأمر، ولم تتعرض لأي اجتياح. ولاحقاً، بعد أن ودَّعَنا

أبي متمنياً لنا ليلة سعيدة، انكبت أمي لأمر ما على هاتفها، وأعلنت لي بأنني كنت على خطأ، وبأن هناك بالفعل حيوان بلون بنفسجي على الأرض. إنه السلطعون مصاص الدماء، الذي يتراوح لون قوقعته بين الأحمر والأزرق، فيما رأسه وكلاليبه بنفسجية اللون، وعيناه برتقاليتان فاقعتان، ولذلك أُطلِق عليه لقب «مصاص الدماء». وعدتني أمي أن ترسمه لي.

قبل أن أغفو، وبينما كانت أمي تدس الغطاء تحت ذقني، سألتني: «ماذا تعلمتَ اليوم؟ علينا أن نتعلم شيئاً جديداً كل يوم، ولهذا السبب نحن أحياء: لكي نتعلم المزيد والمزيد، عن الألوان والنباتات والحيوانات والفصول والمشاعر...»

وبما أنني لم أجب، قبَّلتني على جبيني وهمست:

«لقد تعلمتَ اليوم أن هناك سلطعوناً بنفسجياً اسمه مصاص الدماء».

دسستُ وجهي في صدرها، وفكّرت. ثم قلت: «تعلمتُ أننا يجب أن نطلق سراح القوارب». ابتسمت أمي وداعبت جبيني.

«بالضبط. سيكون هذا هو الدرس الذي تعلَّمتَه اليوم: لا يجوز أن يعيش أحد مربوطاً بسلاسل. لا القوارب، ولا الحيوانات، ولا البشر.»

«البشر لا يُربطون بسلاسل!»

«بل إنهم يُربَطون أحياناً، لكنهم لا يدركون أنها سلال دائماً.»

طبعت قبلةً أخرى على جبيني، ثم نهضت.

«ليلة طيبة يا كنزي.»

ما كادت تصل إلى باب غرفتنا حتى غفوتُ.

# 6

## اليوم الذي عرفتُ فيه أنني كنز

لا أتذكر أنني رأيت أمي سعيدة بالقدر الذي كانت عليه في ذلك الربيع، خلال تلك الفترة التي أمضيناها بالقرب من بحيرة *الطاووس*. عندما أستيقظ في الصباح، أجدها قد رتبت جلستها على الشرفة المطلة على البحيرة، وقد وضعت الطاولة والكرسيين، وأمامها أقلام تلوين وأوراق إضافةً إلى رسمة اليوم. في صباح أحد الأيام، كانت الرسمة هي السرطان مصاص الدماء، وفي صباح يوم آخر كانت الجندب الوردي، ثم ضفدع الفراولة، وبعده الخفاش المذهَّب. توصلت أمي إلى كل هذه الاكتشافات من هاتفها المحمول، لكنها لم تسمح لي بالبحث عنها بنفسي قائلةً بأن الأطفال الذين يستخدمون هذه الوسيلة قد يجدون أكثر مما يريدون حقاً. لذلك، كنت أستلم كل صباح رسمة اليوم وألصقها على جدران الكوخ بجانب الرسمات الأخرى التي صففتُها جميعاً بحيث تشكل عما قريب لوحة جدارية. بدأت أمي تقطف الزهور من كل مكان حول البحيرة وتصنع باقات تضعها في غرفتنا، وفي المطبخ، وعلى الشرفة. بدا الأمر كما لو أننا نعيش هناك حقًا إلى الأبد، إلى درجة أنني أساساً ذكرتُ لها هذه الملاحظة، في صباح أحد الأيام، فسألتني:

«هل ترغب بالبقاء والعيش هنا؟»

« نعم!» أجبتُ دون ذرة من التردد.

في الصباح، كانت أمي تأخذني لكي أقوم بجولة على الدراجة ثلاثية العجلات حول البحيرة، وتساعدني كلما علقت بين تلافيف جذور إحدى الأشجار. كانت تمشي خلفي، وعيناها تائهتان في زرقة بحيرة الطاووس. كانت تُريني الزهور التي تنمو هناك، زهور الأقحوان، بالطبع، والحوذان، ولكن أيضاً زهور السوسن الأصفر.

«كما في عطلة نهاية الأسبوع، تلك، التي صنعناكَ فيها.»

وبضع نبتات الخباز البري التي كانت أمي تنحني لكي تداعبها برؤوس أصابعها، بلطف.

«هل تريدني أن أحكي لك قصتك يا آرثر؟» سألتني ذات يوم، وعيناها مثبتتان على البتلات.

«أي قصة؟»

«قصة لقائي أنا ووالدك، ثم قصتك.»

«ممم... حسناً».

تركت أمي الخباز البري الجميل في التراب، ونهضت.

«سأصنع لك دفتراً جميلاً، اتفقنا؟ سوف نضمِّنُه قصتَك، ونلصق فيه صوراً.»

بدت أمي مهتمةً جداً بهذه الفكرة.

في ذلك اليوم، لم يكن لديها رغبة شديدة بأخذ قيلولة. وبينما كنا كلانا مستلقيَيْن، أخبرتني بنظرة حزينة أن أباها وأمها، جدي وجدتي، لم يخبراها بقصتهما، وأن هذا يجعلها تشعر بالأسف.

«كان يجب أن تطلبي منهما ذلك.»

«صحيح، معك حق.»

بقيت صامتة للحظة.

« أحياناً هناك أشياء لا يجرؤ الكبار على قولها»

«لماذا؟»

«لأنهم فقدوا روح الطفولة بداخلهم، وأصبحوا يراقبون أنفسهم بكل ما يقولونه. يتحدثون عن أشياء كثيرة، لكنهم لا يتحدثون عن الشيء الجوهري.»

«إذا شئتِ، أنا سأطلب من جدتي بدلاً منك أن تخبرنا بقصتهما.» ابتسمت لي وهي تلامس أذني.

«بعد ظهر اليوم، أنتَ من سيقود القارب» أعلنتْ.

«حقاً؟»

«نعم. أنت حكيم وقوي. لم يعد هناك الكثير لتتعلمه من الكبار.»

«بلى... هناك أشياء... لا أعرف كيف أقود سيارة أو طائرة مثلاً. لا أعرف كيف أشغّل الفرن. لا أعرف كيف أعد إلى مئة. لا أعرف كيف أعقد رباط حذائي. لا أعرف كيف أمشي على يدي..»

بدأتُ أسرد لائحة بكل الأشياء الرائعة التي آمل أن أتعلمها يوماً ما عندما أكبر. لم تقاطعني أمي. استمعت إليّ حتى النهاية. ثم قالت: «إنها مجرد أشياء بسيطة. ستتعلمها. لكن هذا ليس هو الشيء الجوهري.»

«وما هو الشيء الجوهري؟»

«الشيء الجوهري هو ألا تنسى كل ما عرفتَه، وما ينساه الكبار.»

لم أفهم حقاً ما قصدته أمي. جذبتني وضمّتني بين ذراعيها، وهي تشدني إليها بكل قوتها، وتطبع ألف قبلة على شعري.

«أمي» قلتُ وأنا أتملص من حضنها. «أنتِ غريبة الأطوار»

ضحكت ضحكة غريبة بدت شبيهة بالنحيب.

«هيا نم يا كنزي. يجب أن ترتاح لكي تجدد قواك، فهناك قاربٌ عليك أن تقوده.»

بعد ظهيرة كل يوم، يتقدم القارب في دوائر واسعة، أحياناً تحت شمس منعشة، وأحياناً تحت غيوم رمادية كثيفة. لم نكن نفوّت نزهة واحدة، حتى عند هطول مطر خفيف. كان كلٌّ منا يحمل مجدافاً. كانت أمي تساعدني في التجديف لأنني أفتقر إلى القوة الكافية. أحياناً تجدف بحماس وقوة، وأحياناً أخرى بقدر أكبر من التعب، تاركةً لي العبء الأكبر في توجيه القارب. انتهى بي الأمر بإعطاء اسم لكل من القاربين. قررتُ بأنهما يشكلان ثنائياً: «لانا» للقارب ذي الطلاء المتقشر؛ و«تيتو» للقارب الآخر، الذي بدا لي أكثر خشونة ومتانة.

«اليوم، دورُ مَن؟» كانت أمي تسأل وهي تقترب من السلاسل الصدئة.

«دورُ لانا!»

من حين لآخر، يأتي سائح أو شخص من أبناء المنطقة، يقوم بجولة، ويكسر هدوء المكان، فيُلقي علينا تحيةً مهذبة، ويتبادل مع أمي بضع كلمات عن الطقس، لكن مروره لم يكن يعكّر أبداً مسار أيامنا.

«برأيكَ، كيف تتشكل البحيرات؟» سألت أمي ذات يومٍ كانت السماء فيه رماديةً كثيفة الغيوم.

كانت مياه البحيرة داكنةً ومنذِرة تحت السحب المنخفضة.

«من جهتي» تابعتْ أمي «أعتقد أن البحيرات تتشكل كلما حَزِن طفلٌ ما.»

كانت قد توقفت عن التجديف ووضعت يديها على ركبتيها، ما جعلها تبدو مثل طفلة صغيرة.

«عندما تتساقط الدموع، تتشكل بركة. ولأننا نحن البشر جميعاً متصلون، ولأننا جميعاً جزء من عائلة واحدة كبيرة، فكلما بكى طفل، تبكي الطيور أيضاً، وتتدفق دموعُ الطيور في كل العالم، وتَسيل، وتَسيل، لتزيد حجم البرْكة الصغيرة فتتحول إلى غدير، ثم إلى بحيرة أو نهر. وعندما يكتشف الطفل المياه الزرقاء، يذهب عنه شعوره بالحزن و..»

«لا!» رددتُ بحزم. صالبتُ بين ذراعيّ على صدري، وبدأت أدحض نظريتها بحزم: «الأمر لا يحدث بهذه الطريقة!»

كنت على يقين من ذلك.

«بأي طريقة إذن يا آرثر؟»

«إنها شاحنة ذات حاوية قلاّبة، تأتي محملة بالماء. يصنع الآباء حفراً بالحفارات، ثم، بيب بيب بيب، يُفرغون فيها الماء.»

حكّت أمي ذقنها بحركة تلقائية، وهي تكبت ابتسامتها: «هذه فكرة... لم تخطر أبداً ببالي...»

لا أدري ما إذا كانت أمي قد بحثت عن الإجابة على هاتفها ذلك المساء. أظن أن هذا غير مهم. لطالما أكدت أمي أن الخيال أجمل صفة على وجه الأرض. كانت تغرس بذوراً سوف تُنبت يوماً ما.

في ذلك الربيع، بجانب البحيرة، أصبحت تلك هي لعبتنا الصغيرة، أن نخمِّن كيف تتشكل الغيوم، والحصى، والزهور، والأشجار، والمسارات، والجبال... كان لدى أمي جواب على كل شيء، يتمثل بعمالقة، وأمطار سحرية، وأعاصير متنقلة. أما أنا فلم أغير رأيي، وهو أن الآباء هم مَن صَنعوا غالبية الأشياء، والأمهات يصنعن الزهور، ويصنعن الأطفال.

في مساء أحد الأيام، أظن أنه كان اليوم السابق لوصول أبي إلى الكوخ، أفقتُ لأجد السرير فارغاً. كان الظلام مخيماً، لكن ضوءاً خافتاً كان لا يزال يُنير الشرفة. نهضتُ من السرير متلمساً طريقي باتجاه الضوء. كانت أمي جالسة خلف الطاولة، والمصباح يضيء شعرَها. كانت مُنْكبَّة فوق الأوراق، متدثرةً ببطانية قديمة وخشنة.

«أمي؟» قلت

جفلتْ ولبثت بضع ثوانٍ بلا حراك، واضعةً يدها على قلبها.

«لقد أرعبتني يا آرثر.»

في الخارج، كان القمر بدراً. وعلى سطح المياه الأملس، ينعكس قرص أصفر باهت. بدت لانا وتيتو مفتونين بالمنظر.

«ماذا تفعلين؟»

كان هناك أمام أمي، أوراق وأقلام ملونة، لكنِ أمي أبعدتها ودعتني للصعود إلى حجرها. وسألتني: «برأيكَ كيف تشكلَ القمر؟»

عندما لم أُجب، لشدةِ انغماسي بمشهد لانا وتيتو وهما بهذا القدر من السكون أمام القرص الذهبي، همستْ لي أمي: «كنزي؟»

فاندفع من فمي فجأةً سؤال لم يخطر ببالي أبداً من قبل: «لماذا تُسميني "كنزي" يا أمي؟»

بدت وكأنها تبحث عن الجواب في السماء، لكنني كنتُ أتابع:

«الكنوز هي أحجار كريمة ثمينة وعملات ذهبية. لقد ذُكر هذا في كتابي عن القراصنة.»

«جميع الأطفال كنوز، بل وأثمن حتى من الذهب أو الألماس.»

«لا.»

«ولمَ لا؟»

«لأنهم ليسوا مخبئين. بينما الكنوز مخبأة ويجب العثور عليها.»

«أه، أهذا ما تظنه؟ هل تعتقد أن هناك مكان للاختباء أفضل من بطن أُم؟»

نظرتْ إليّ تلك النظرة الجادة للأشخاص الكبار، لكنني شككتُ في الأمر وقلت:

«الكنوز هي شيء يجب أن يحفر الناس لكي يعثروا عليه.»

«هل تريد أن أريك شيئًا؟»

نهضت، وأنا لا أزال بين ذراعيها، ملتصقاً إلى عنقها. وضعتني على الطاولة، وسط أقلامها الملونة. ثم رفعت قميصها وأزاحت سروالها قليلاً.

«انظر. هذا هو الدليل على أنك كنز. بل وأثمن من ألماس الأرض، كله.»

بأصابعها النحيلة، أرتني أمي خطاً مائلاً إلى البياض، مع طيف فاتح جداً من اللون الوردي، شكلَ ما يشبه حاجزاً صغيراً.

«ما هذا؟»

«هذا هو المكان الذي حفرنا فيه لكي نجدك.»

«ومن هو الذي حفر؟»

«أبوك طبعاً! أبوك بمساعدة طبيب!»

«ما الذي كنتُ أفعله هناك؟»

«كنتَ تنام، هانئاً ومحظوظاً! حتى أنك كنتَ تضع إبهامك في فمك.»

«معقول!»

«نعم. كنتَ نائماً وتنتظر أن يتم العثور عليك، وأخذك تحت الرعاية.»

مددتُ يدي نحو العلامة. أومأت لي أمي برأسها، مشجعةً إياي على لمسها. كانت طرية، ومقبَّبة بشكل طفيف.

«أنتَ كنزُنا، أنا وأبيك. في نهاية حياتنا، عندما سنُسأل إذا كنا أغنياء، سنجيب بـ نعم، كنا أغنياء غِنىً لا حدَّ له، لأنه كان لدينا أنت.»

عاد قميص أمي ليغطي العلامة، التي تشكل الدليل على أنني كنتُ كنزاً دفيناً. بدت أمي وكأن كيانها قد انقلب رأساً على عقب.

# 7

## اليوم الذي وُلدت فيه لقمار صغيرة بحركة من أبي

انضم إلينا أبي في نهاية الأسبوع مرتدياً قميصاً منقوشاً بمربعات خضراء وبيضاء. وصل بالتزامن مع وصول رجل متقدم جداً في السن، رَكَن سيارتَه أمام الشاليه الآخر، الشاليه الذي يقيم فيه «أحدهم». «أحدهم» إذن، هو هذا السيد ذو الشعر الرمادي الخفيف، الذي يرتدي بنطال صياد.

على المائدة، كان علينا أن نخبر أبي عن أسبوعنا الذي أمضيناه بدونه، لكنه لم يكن يُنصت إلينا حقاً. كانت عيناه في مكان آخر، أبعد من البحيرة. كنا نقول عن الشخص الذي يعيش تلك الحالة من الابتعاد عن الواقع، بأنه «سارح فوق القمر».

في صباح اليوم التالي، عندما أشار أبي إلى أنه يريد القيام بجولة حول البحيرة ولكنه يحتاج إلى من يُرشده، كانت أمي لا تزال ترسم على طاولة الشرفة. لم يبدُ أنها سمعته. نهضتُ بسرعة. في البعيد، كان الرجل العجوز هناك على ضفة البحيرة، أردتُ أن أعرف ماذا يفعل.

الآن، لم أعد أتذكر من عطلة نهاية الأسبوع التي أمضيتُها بصحبة أبي على ضفاف بحيرة الطاووس برفقة أبي، سوى تفاصيل قليلة، محددة وثمينة معاً، مثل الأسماك في قاع دلو الرجل العجوز، الأخضر الترابي، التي كانت تسبح في دوائر. أخذ أبي والرجل العجوز يتبادلان الكلام. بضع عبارات المجاملة. دعاني الرجل العجوز للاقتراب وإلقاء

نظرة في قاع الدلو. أتذكر أنني قلتُ في سري بأنني أكره لونَ دلوِهِ، الأخضر الترابي، لأنني كنت أقرنه بروث البقر، وبالزي المموَّه للعساكر في الحرب، وبالصبار الشوكي المؤلم. بدت الأسماك وكأنها مصابة بالجنون في قاع الدلو. بدت لي قبيحة وبدون بريق. أسماك شبوط رمادية، وأخرى كئيبة من نوع غودجون كئيبة، وسمكة كبيرة، من نوع فرخ، لا تكفي لإثارة أي قدر من الدهشة.

«ألا توجد أسماك حمراء؟ أو خضراء؟ أو زرقاء؟»

نظر إليّ الرجل العجوز نظرة غريبة. مرر أبي يده في شعري وقال: «لا تزعج الرجل، عليه أن يحافظ على تركيزه.»

لم يعترض العجوز على ذلك، فيما بقيتُ أنا في وضعية القرفصاء أنظر إلى داخل الدلو.

«إنها قبيحة.»

أخذ أبي يشدني من كمّي بإصرارٍ متزايد.

«الأسماك على كوكب أورانوس، زرقاء، أو بنفسجية.»

«هيا بنا يا آرثر، تعال!»

«وجميع الحيوانات حرة. لا يحبسونها في دلاء!»

نظر إليّ الرجل العجوز على نحو غريب.

«على كوكب أورانوس؟ هل أنت قادم من الفضاء؟»

«لا، لكن سيتم إرسال أمي إلى هناك...»

حملني أبي فجأة بين ذراعيه. بدأتُ أقاوم بكل ما أوتيت من قوة. وأصرخ: «اتركني! أنزِلْني!»

حين أعادني إلى الأرض، كان الرجل العجوز يُفرغ دلوه في البحيرة. انزلقت سمكةُ الفرخ بحركةِ غطسٍ بدت كأنها بلا نهاية.

«أرأيت؟ إنه يُطلق سراحها»، أشار أبي، وهو لا يزال يشدني من كمّي. وقال موجهاً كلامه للرجل، «طاب يومك» ردّ الرجل بمثلها. شعرتُ بنظراته المحتارة تلاحقنا لبضعة أمتار.

«لا يجوز أن تُخبر الجميع عن المهمة إلى أورانوس، يا آرثر. إنه سر. هل تتذكر ما قالته أمك؟»

في ذلك الصباح قمنا بنزهة طويلة حول البحيرة، لكن عينيّ لم تفارقا الرجل العجوز ودلوَه، لحظةً واحدة. كل ما كان يهمني هو أن أعرف إن كان قد أسَرَ أسماكاً جديدة ليضعها في سجنِ دلوِه.

من تلك العطلة، أتذكر أيضاً قيلولات أمي. جسدها النحيل تحت الملاءة المزهرة الصفراء. شعرها المفروش فوق الوسادة مثل خيوط الشمس. الستائر البنفسجية المسدلة. أنفاسها التي كانت خافتة لدرجة أنني كنت أضطر أن أنحني فوق وجهها لكي أسمعها. إشارات أبي الهامسة التي تطلب مني أن ألزم الهدوء، كلما جعلتُ سياراتي الصغيرة تسير على الحائط. مرّ الوقت ببطء شديد بصحبة أبي، فلم يكن يمتلك موهبة أمي في إطلاق العنان لمخيلتنا. كان يشرب قهوته ويقوم بين الحين والآخر بدفعِ إحدى سياراتي إلي، لكنني كنت أشعر بأنه غير مهتم باللعب معي حقاً.

«يجب أن ترتاحي»، همس أبي لأمي وهما أمام موقد الطهي، وفاحت رائحة الزبدة المقلية. وأضاف: «لقد أجهدتِ نفسَك لأجله كثيراً، طوال الأسبوع.»

«لا، كنا ننام، ونأخذ قيلولة كل يوم، أليس كذلك يا آرثر؟»

لم يُتَح لي وقت للرد، لأن أبي قاطعها قائلاً:

«أنتِ تفهمين ما أعنيه.»

فاجأتني تنهيدة أمي ثم الطريقة التي وضعت بها المقلاة، التي تتصف بالفجاجة ونفاد الصبر.

في مساء أحد الأيام، لا بد أنه كان يوم سبت، بعد العشاء، كان أبي وأمي يغسلان الأطباق عندما سمعتهما ينطقان باسمي. كانت أمي هي التي تكلمت، وبدا صوتها غريباً، مبتهجاً ومتردداً في آن واحد:

«أن يتعلم في المنزل.»

«في المنزل»

«بهذه الطريقة، نستطيع المجيء إلى هنا كلما أردنا، وتأتي أنت لتنضم إلينا في عطلات نهاية الأسبوع.»

«لا تتفوهي بأشياء غبية.»

«إنه في أحسن حالاته هنا، يراقب كل شيء، الزهور، والأشجار، والحشرات. إنه سعيد في قلب الطبيعة.»

«أنتِ سعيدة هنا. لكنه هو بحاجة إلى زملائه...»

«يجدر بك أن تراه. إنه يتحول هنا إلى طفلٍ آخر.»

سقط قِدرٌ في قاع حوض غسل الأطباق. وأطلق أبي شتيمة. انتشرتْ رغوةٌ فوق البلاط والستائر. استدارت أمي، لكنني كنتُ تحت الطاولة أبحث عن قلم رصاص ملون ضائع. لم تلاحظ أنني كنتُ أستمع إليهما، وإبهامي في فمي.

«أسابيع قليلة ويأتي الصيف، حينها سيُمضي أوقات العطلة معكَ بصورة دائمة.»

ساد صمتٌ طويل. خيل لي بأنني سمعتُ أمي تشهق بالبكاء. عندما تكلَّم أبي، فعل ذلك بصوت خفيض جداً:

«إنه بحاجة لمواصلة حياته كما في السابق. رفاقه في المدرسة، معلِّمته، روتينه المعتاد. سيكون الأمر معقداً بما فيه الكفاية على هذا النحو. أما إذا اختفت كل نقاط ارتباطه...»

ظهرت أمي فجأة تحت الطاولة، وعلى وجهها ابتسامة عريضة. بدت رموشها ملتصقة فيما بينها من البلل.

«تعال يا كنزي، حان وقت الحكاية ثم وقت النوم.»

لم تترك لي الخيار، بل حملتني بين ذراعيها وأخذتني معها. لا أعرف ما الذي فهمتُهُ من هذا الحديث بينهما. كنت أشعر بأنني ثقيل عندما وضعتني أمي في السرير. لم أسمع القصة جيداً، وفي الظلام، راح قلبي ينبض بقوة لدرجة أنني كنت متأكداً من أن الرجل العجوز في ذلك الشاليه، يسمع دقاته. همست أمي قبل أن تغلق الباب: «سآتي إليك في الحلم».

استيقظتُ في وقت لاحق من تلك الليلة نفسها. كان الظلام حالكاً في الغرفة. لم تكن أمي بجانبي، ولا أبي. أرهفتُ سمعي، متوقعاً سماعهما يتحدثان بصوت منخفض، لكن الصوت الوحيد الذي وصلني كان همسَ الريح في الأشجار. أخرجتُ إبهامي من فمي وانزلقت من السرير. كانت الغرفة الرئيسية في الكوخ فارغة وغارقة في الظلام. استرشدتُ بالوهج الفضي للقمر المكتمل في الخارج. كانت الشرفة خالية. هنا أيضاً، لا أمي ولا أبي. بدأ قلبي يتسارع بشكل خطير، كما في الكوابيس، مثل ذلك اليوم الذي تعلَّقتُ فيه بعربةِ تسوُّقِ امرأةٍ في السوبر ماركت، ظنًا مني بأنها أمي. كان الإحساس رهيباً، مثل فراغ ينفتح تحت قدمي ويمتصني. ولكن سرعان ما لفتت انتباهي حركةٌ ما، في البحيرة. القاربان. لانا وتيتو. لقد تم تحريرهما. كانا يتمايلان

على السطح العاتم، بلا صوت. من وقت لآخر، يغوص مجدافٌ في الماء برفق، محدِثاً صوتَ حفيفٍ طفيف جداً مثل رعشةِ جناح لطيفة. دهشتُ وأنا واقف ويداي ممسكتان بالحاجز، حين شاهدتُ بذهول رقصةً سحرية للقاربين. كانا يدوران، ويصنعان رقصة فالس بطيئة دون أن يتقاطعا أبداً. كان أبي يقود أحدَهما. وأمي تقود الآخر، ملفوفةً بشال. كان الماء يرسم من حولهما دوائر متتاليةً جميلة. كنتُ أوشك أن أناديهما عندما انحرف قارب أبي عن مساره وانزلق نحو قارب أمي. في ضوء البدر اللؤلؤي، استطعتُ أن أميز وجه كل منهما وهو ينظر إلى وجه الآخر. مرّت فترة صمت أبدية. ثم مدّ أبي يده. ظننتُ أنه سيلمس أمي، لكن أصابعه تحركت نحو الماء، حيث ينعكس القرص الفضي، على السطح الذي عاد إلى سكونه.

لمستْ أصابعُ أبي قمرَ المياه، بالكاد مثل ملامسةِ يعسوب. تجمدتُ من الدهشة، وشهدتُ أجمل ما قُدر لي رؤيته في حياتي. بفعل لمسة أبي، اضطرب القمر وارتبكت صفحته، وبدأت آلافٌ من انعكاساته تومض حتى تشكلت منها سحابةٌ من أقمار صغيرة، هي أبناء القمر من أبي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# 8

## اليوم الذي اكتشفتُ فيه
## بانني كنت كرزة قبل ان اكون صبياً صغيراً

بعد وقت قليل، عدنا إلى البيت، وأحضرت أمي ضمن مشترياتها دفتراً كبيراً. كان غلافه جميلاً كأنه غلافُ كتاب: لونه أزرق سماوي باهت ظهرت فوقه شجرةُ حياة ذات جذع أبيض وأغصان بيضاء، وتشكِّل حافةٌ فضية، أوراقها الجميلة.

سألتها: «ولماذا أرى صفحات كتابكِ فارغة؟» كنت أقلِّب الصفحات ولا أفهم، إنها بيضاء، فارغة تماماً.

«لأنه كتاب يتعين أن نكتبه بأنفسنا.» أجابت

لم يساعدني هذا الجواب كثيراً على الفهم.

«أنا التي سوف أكتبه يا آرثر» أضافت أمي «سوف يكون كتابَ حياتكَ.»

كانت أمي قد توقفت عن العمل، أو أنها على الأقل، لم تعد تذهب إلى مكتب لكي تعمل. كانت تتمرن فقط على رسم لوحة الكون الكبيرة. كانت تملأ صفحات بأكملها، لكنها لم تشأ أن تريني إياها.

«إذا شاهدتَ كل شيء مسبقاً، فلن يكون هناك أي عنصر مفاجأة.»

كانت الجدة أو الخالة كاسي تأتيان بين وقتٍ وآخر، لقضاء أيام الأربعاء في المنزل معي ومع أمي. كان لكلٍّ منهما خصوصيتها. عندما تأتي الجدة إلى هنا، تُصرّ دوماً على نقل الزهور التي تركتها أمي تذبل،

إلى أصص أخرى، والعناية بالمساحات المزروعة في الحديقة. وعندما تأتي كاسّي، تُشغّل الموسيقى بأعلى صوت وتُحضّر فطائر الكريب. كانت تعشق الكريب.

في ذلك الأربعاء، كانت الجدة هنا، وكان الفصل ربيعاً. عرفتُ ذلك لأن أزهار الأقحوان انتشرت بكثرة بين العشب في الحديقة. كانت الجدة جالسةً في العشب، مستندة إلى ركبتيها، أمام حوض زهورٍ ضمَّ في يوم ما، زهور توليب جميلة، لكن أمي توقفت عن العناية بها على مرّ السنين.

«بيت بلا زهور هو بيت بلا حياة»، كانت الجدة تقول، وقد اتسخت ركبتاها بالتراب المبلل.

كانت ترتدي فستاناً برتقالياً جميلاً بنقوش بيضاء على شكل مثلثات. الجدة فقط هي التي كانت ترتدي ثياباً زاهية بهذا الشكل. كانت أمي تجلس في الظل إلى طاولة صغيرة على الشرفة، وأمامها الكتاب الذي زينت غلافَه شجرةُ الحياة، ونحو اثني عشر قلماً من كل لون، وكومة من الصور الفوتوغرافية، ومقص.

«دع أمك وشأنها» كانت جدتي تقول لي كلما اقتربت لأرى ما تفعله «تعال، أحتاج إلى مساعدة في سقاية الحديقة!»

لكن عناد جدتي كله لم يكن كافياً لإخماد فضولي، وينتهي بي الأمر جالساً فوق ركبتي أمي، ضارباً بعرض الحائط احتجاجات جدتي. أعلنت أمي: «اتركيه...» ووضعت قبلةً فوق شعري.

«ما هذا؟» سألتُ وأنا أشعر بالخيبة. كانت الصفحات أمامي، مليئة بكتابات خضراء، ثم زرقاء، ثم بنفسجية، وليس هناك أية رسوم، هناك فقط صورتان فوتوغرافيتان لشخصين، حتى أنني لا أعرفهما. رجل

يرتدي قميصاً منقوشاً بمربعات، مطابقاً لقميص أبي، يقف فوق دراجة سكوتر بخارية مثبَّتة على حامل، شعره بني أشعث ومبعثر. كان يبتسم للكاميرا، ويده فوق قبضة السرعة.

«أعرف من يكون!» أعلنتُ لأمي وأنا أضغط بإصبعي فوق الصورة.

«أه، حقاً؟» تظاهرت أمي بالمفاجأة.

«إنه الرجُل الذي وُضعت صورته فوق غلاف DVD.»

نظرت أمي إليّ نظرة استفهام. نهضتُ واختفيت بسرعة شديدة في المنزل. وعندما ظهرتُ مجدداً، كنت قد بعثرتُ وسط الصالون، نصف مجموعة أقراص الـ DVD ، لكنني وجدت ما أبحث عنه. ناولتُ أمي غلاف فيلم «عصابة الجامحين»، فانفجرتْ ضاحكةً، لدرجة أن جدتي وضعت مِرَشّ السقاية جانباً، واقتربت. «مارلون براندو. إنه إطراء شديد. أنا متأكدة من أن هذه المقارنة سوف تُسعد *فيك*!»

ابتسمت الجدة وهي تمسح يديها المتسختين بقطعة قماش.

«هذا أبوك في الصورة. أبوك عندما كان أصغر سناً.»

«أبي ليس لديه دراجة سكوتر.»

«بل كانت لديه واحدة في السابق.»

عدتُ لأستقر في حجرها، منكبّاً فوق الصورة. أبي عندما يوجد شعرٌ على رأسه، لا يشبه أبي بالفعل.

«وماذا عن السيدة؟» سألتُ. «هل هي الخالة كاسّي؟»

كانت الصورة الثانية نسخة طبق الأصل من شقيقة أمي. شابة بشعر أحمر متوهج ترتدي ملابس سباحة على الشاطئ، بجسد متكاسل، وابتسامة ماكرة.

«هذه أنا»، قالت لي أمي.

لبثتُ مذهولاً

«ماذا تقول هذه الكلمات؟» استأنفتُ وأنا أشير إلى الكتابة التي تمتد بلا نهاية على الصفحات.

«هل تريدني أن أقرأ لك؟» قالت أمي.

وافقتُ بحماس. سحبتْ جدتي كرسياً، وتهاوت فوقه. أهملنا في عصر ذلك اليوم، مسألة العناية بنباتات الحديقة.

كان صوت أمي ناعماً وهي تروي. تمنيتُ ألا تتوقف أبداً.

«من هو آرثر؟ إنه قطعة صغيرة من أبيه، وقطعة صغيرة من أمه، وقطعة كبيرة من نفسه بالذات. أبوه هو فيكتور ديشومان.

ولد في الساعة العاشرة وعشر دقائق، من ليلة 5 مارس، في بلدة سالانش، بوزن 2,300 كغ، وحجم صغير إلى درجة أن أمه، كانت تضعه في أيامه الأولى، داخل جِراب كبير، من جوارب الفصح»

لم أستطع كبح ضحكتي تعبيراً عن عدم التصديق.

«نشأ فيكتور في سانت نيكولا دي فيروس، القرية الجبلية التي تقع مقابل جبل مونبلان. لخيبة والديه الشديدة، لم يُظهر فيكتور أي حب للتزلج، وفضَّلَ بدلاً من ذلك، إصلاح الدراجات الهوائية والسيارات التي تعمل بالتحكم عن بعد، وكل ما تقع عليه يده. كان فيكتور ضعيفاً في الرياضيات، لكنه ممتاز في الرياضة. كره في طفولته الهندسةَ والكلابَ الشريرة، والسبانخ وذلك النوع من الرخويات الذي يسمى بزّاقة.»

أطلقتُ من جديد ضحكةً تلتها شهقةُ استغراب:

«أبي هو من قال لكِ ذلك؟»

«نعم. أبوك هو من ساعدني على الكتابة.»

واصلت أمي، فهي لم تكن تسمح لشيء أن يشتت انتباهها لفترة طويلة، شأنَ الكبار جميعاً:

«كان فيكتور في صغره، يحب دُمى المارشميلو والشوكولاتة، والسباقات في أكياس البطاطس، وركوب الدراجات، وحلوى السميد بالحليب التي تعدها والدته.»

مدت أمي يدها إلى كومة الصور على الطاولة وأخرجت صورة لطفل ملفوف بقطعة قماش بيضاء.

«سنضيفها إلى الكتاب. هذا أبوك عندما كان طفلاً.»

صرختُ وأنا أتلوى في حضن أمي، وقد نفد صبري:

«أكملي!»

فاستجابت.

«أمي هي كلاريس غانيون. وُلدت في 22 يوليو في أنجيه الساعة الخامسة صباحاً وخمسين دقيقة، بوزن 3 كيلوغرام وستمائة غرام. كانت تبكي بكاءً شديداً يتسبب بإيقاظ كل المواليد الجدد في جناح الولادة، حتى اضطرت القابلات لإخراجها من غرفة المواليد لكي تنام في أحد الممرات.»

أطلقت الجدة تنهيدة غريبة كتمَتْها بيدها.

«أتذكَّر، قالت. أثار والدكِ فضيحة حول الأمر. الآن هو أول من يضحك عليه.»

فتشت الجدة في كومة الصور ووجدت صورة أمي وهي طفلة. كانت تبكي في الصورة، بوجه متوتر، ومصطبغ بالبنفسجي، وقبضتين مشدودتين. كانت صلعاء تماماً. لم أكن أعلم أن الأمهات يولدن صلعاوات...

«أهذه أنتِ؟» سألتُها غير مصدِّق.

كيف يمكن أن يخطر ببالي بأن أمي، التي هي اليوم بهذا الجمال، كانت تشبه فخذ الخروف الأرجواني الغريب هذا؟

«هذه أنا.» ثم استأنفت القراءة:

«نشأت كلاريس في أنجيه. ومنذ صغرها، كانت ترسم دوماً فوق كل شيء تقع عليه يدُها. لكن جدي لم يرُق له أن ترسم فوق ورق جدران في غرفة المعيشة وفوق ملاءة سريره.»

ترددت ضحكتي صدىً لضحكة جدتي. وعندما تضحك جدتي، تبدو ضحكتُها كأنها شلال يتساقط على الصخور.

«كانت كلاريس مجتهدة جداً في المدرسة، لكن مادتيها المفضلتين كانتا اللغة الفرنسية والفن التشكيلي. في طفولتها، كانت تكره اللحم، وصوت احتكاك الطباشير بالسبورة، والخريف، وأوراق الشجر الذابلة التي تثير في نفسها الحزن. كانت تحب رائحة أقلام التلوين، وتحب أن تمص أقلام التلوين، وأن تخِز زملاءها في المدرسة بطرف فرجارها، وتقفز في بُرك المياه في الطرقات.»

في نهاية المقطع، انحنت أمي نحوي:

«إذن، هل أعجبك هذا الكتاب؟»

«أريد التتمة!» طلبتُ بنبرة آمرة.

«حسناً، حسناً، أستنتج بأنه أعجبك...»

أخذت أمي نفَساً قصيراً قبل أن تُكمل:

«التقى أبوك وأمك في الحادي عشر من أبريل. جاء في تنبؤات البرج المتوافق مع تاريخ ميلاد أمك: *قد ينبض قلبك من جديد. ويفضل*

*اقتران المشتري القادم مع شمسك، ستأخذ حياتك العاطفية منعطفاً جديداً. أيها العازبون، اذهبوا إلى لقاء مَن تحبون!»*

«ما معنى هذا؟»

«معناه أن المشتري قد وضع قدمه في ظهر أبيكَ ودفعَه للتحرك أخيراً وطلب موعد مني.»

بدت الجدة مُستمتعة. لم أفهم الكثير، لكنني تركت أمي تُكمل:

«في ذلك اليوم، الحادي عشر من أبريل، وجَّه فيكتور دعوة إلى كلاريس لتناول مشروب. رأت كلاريس، التي كانت بصدد قراءة برجِها، في تلك الدعوة علامة. اقترحت اللقاء في حانة نبيذ بدت لها راقية، ولم يسبق أن تجرأت على دخولها أبداً. ارتدى أبي لتلك المناسبة قميصاً أبيض تماماً. كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي تراه فيها أمي مرتدياً أي شيء سوى قمصانه الأزلية المنقوشة بالمربّعات. أرادت أمي أن تقصّ غرَّتها بنفسها للمناسبة، لكن النتيجة كانت فاشلة. اضطرت أن تخفي الكارثة وراء عصبة رأس بوهيمية. دفع أبي ثمن النبيذ، ودفعت أمي ثمن طبق الجبن والخضار. كانت رغبةُ أبي بترك انطباع جيد شديدة إلى درجة أنه أجبر نفسه على قضم قطعة كرفس. كانت تلك المرة الأولى والأخيرة.»

قهقهت أمي وجدتي. كان عليّ أن أحثهما على مواصلة القراءة.

«الشيء الذي جعل أبي ينجذب إلى أمي هو شعرها الرائع، بخصلاته المتلألئة، وضحكتها العفوية، وصراحتها. والشيء الذي جعل أمي تنجذب إلى أبي: لطفه وهدوؤه، ويداه الكبيرتان اللتان تحملان آثار العمل.

قلبت أمي الصفحة. أصبح الخط هنا بلون أخضر تفاحي جميل، وأُلصقت صورة غريبة، بالأبيض والأسود، لا يمكن أن نميز فيها أشياء كثيرة، باستثناء بقع متباينة الألوان.

«هذا أنتَ،» قالت لي أمي.

«لا.»

«اليوم الذي علمنا فيه بوجود آرثر في بطن كلاريس، كان في الأول من أغسطس. كان أبواكَ في إجازة في كاسيس. شعرت أمك بأن هناك شيئاً غير عادي. فلم تعد تحب شرب قهوتها صباحاً، أو تستطيع تحمل روائح الطهي. كشف الفحص عن وجود جنين في بطنها. بكت أمك من الفرح؛ ولبث أبوك غير مصدق: أراد أن يراه بأم عينه. حين عادا من الإجازة، ذهب أبوك وأمك لزيارة طبيب لديه جهاز خاص يفحص ما بداخل بطون الأمهات.»

«مثل جهاز كشف الكنوز؟»

«إلى حدٍ ما، نعم، قالت أمي مؤكدةً.»

«على شاشة الطبيب، رأى أبوك وأمك الجنينَ يتحرك. كان يتلوى بالفعل مثل سمكة في وعاء.

انحنيتُ ونظرت بارتياب إلى الصورة.»

«لكنني بلا عينين.»

«لا يستطيع جهاز كشف الكنوز أن يلتقط صوراً واضحة جداً. بالطبع كانت لك عينان. لكن كل ما في الأمر أنها لا تظهر في الصورة.»

أشارت أصابعُ أمي إلى تعليقٍ أسفل الصورة.

«كان وزنكَ 4 غرامات وطولكَ 3 سنتيمترات. كنتَ بحجم حبة كرز.»

«حبة كرز،» قلتُ متفكراً.

في ذلك اليوم، في ظل نسيم ربيعي لطيف، رسمت أمي حبة كرز أسفل صورتي في بطنها. حبة كرز مستديرة حمراء فاقعة، مصحوبة بورقة خضراء طرية.

«كان حمْلُ أمكَ مسلياً. ألهمها شغفُها بالرسم أفكاراً شتى. كانت ترسم فوق بطنها في كل يوم عطلة. رسمت فوقه سمكة في وعاء، ومنطاداً، وكرة شاطئ، خوذة رائد فضاء، بركاناً، حتى أنها رسمت فوقه في اليوم السابق لولادتها بيضةَ فصح. كان أبوك ينظف بقع الألوان عن السجادة، ويتذمر. ثم انتهى به الأمر إلى استبدال السجادة بمشمع سهل التنظيف. عشقَ آرثر الموسيقى، وهو في بطن أمه، وكان، ما أن يسمع فرقة *ميتاليكا* أو أغنية *أمي* بصوتِ نورا جونز، حتى يبدأ بالحركة.»

نقّبت أمي في كومة الصور، وصفّت أمامي صور بطنها ملوناً بشتى الألوان: لون أخضر لبركان، وبرتقالي لسمكة، ووردي لمنطاد، وأبيض لرائد فضاء، وأزرق لبالون. في الصور، كانت أمي تبتسم ابتسامات عريضة، وقد ضمت شعرها إلى الخلف برباط مطاطي. كانت تعرض يديها الملطختين بالطلاء، للكاميرا. في الصورة الأخيرة، كانت مستلقية على ظهرها وتشير بسبابتها إلى بيضة عيد الفصح العملاقة.

«في اليوم الذي ذهبت فيه أمي إلى جناح الولادة، كانت تُنهي تلوين جدار غرفة نوم آرثر المستقبلية، بعد أن رسمت فوقه مرجاً مليئاً بالزهور وعشبة النفل والأرانب الأرجوانية، فيما كان أبي ينظف سيارته بالمكنسة الكهربائية.»

عثرت أمي في الكومة بسهولة على الصورة التي كانت تبحث عنها: صورتها على سريرِ مستشفى، حيث ظهرت بجبين لامع، وخصلات شعر

متلاصقة، ومولود ضئيل بين ذراعيها. وصورة أخرى، يحملني فيها أبي. كنت أرتدي جوربين أبيضين لليدين، وقلنسوة بيضاء.

«جاء آرثر ديشومان إلى كوكبنا الجميل في الرابع من أبريل، الساعة الثامنة وخمس دقائق، بعد عشرة أيام من موعده المقرر. قال الأطباء لأبي وأمي بأنه أراد الاستفادة من دفء حوض السباحة أطول وقت ممكن. أعلن أبي بأن أجراس الفصح[1] هي التي جلبت معها آرثر، قبل أربع وعشرين ساعة من موعد العيد. فكرت أمي بأنه لو جاء في الوقت نفسه مع بيض الشوكولا، لأصبَحَ ربما صبياً شرِهاً.»

«وهو ما تحقق» قالت جدتي وهي تعبث بشعري.

«أخبريني بالمزيد» طلبت «ماذا حدث بعد ذلك؟»

«لم يسعفني الوقت للكتابة عما حدث بعد ذلك. إذا تركتَني أكتب، ستحصل على التتمة غداً.»

«حسناً» أعلنت جدتي. «بما أن عليك أن تترك أمك تكتب، تعال معي لكي ننهي سقاية النباتات.»

مدت لي يدها. جاء عصفور دوري ليحط قرب مِرَشِ السقاية، وهو الذي جعلني أحسم أمري وأتبعها.

تحول الأمر إلى طقس يومي، بالنسبة لي ولأمي. في كل صباح، أثناء انهماكها في إقفال أزرار معطفي، وتسريح شعري، ومسح بقايا المربى

---

(1) أجراس الفصح في التقاليد الفرنسية والبلجيكية، هي أجراس الكنائس التي تقول الأسطورة بأنها تصمت في عطلة الفصح (بدءاً من يوم الخميس، الذي يسمى خميس العهد، حتى صبيحة عيد الفصح)، احتراماً لذكرى موت المسيح، وتنتقل إلى روما، حيث يباركها البابا. ثم تعود، وتقرع فرحًا وتودع في الحدائق، البيض المصنوع من الشوكولا.

عن زاوية فمي، وانتعال حذائي، كانت تبقي عينيها في صفحات الكتاب الذي فتحته على الأرضية، وتقرأ لي دون أن تتوقف عن انشغالها بي:

«في الليالي الأولى، كان آرثر ينام في سرير أبيه وأمه، بين وسادتيهما.»..»في عمر الشهرين، كان آرثر يبتسم لخزانة الصالون.»..»أول نوعٍ تذوَّقه آرثر من الخضار، كان قطعة جزر مهروسة.»..»ظهر أول سِنّ في فم آرثر، أثناء رحلة بالقطار السريع لزيارة جدِّه وجدَّته في سان نيكولا دو-فيروس. لم يواجه أبوه وأمه هذا القدر من نظرات الاستياء.» ..»أول لعبة أُغرم بها آرثر، هي الرتيلاء السوداء العملاقة. كانت أمه تجدها مرعبة، ولا تفهم كيف يمكن لطفلٍ أن ينام وهي ملتصقة إلى عنقه. فعلتْ كل شيء لكي تجعله يفضِّل الأرنب الأبيض، ذا الفراء الناعم، والدب الصغير الأصفر صاحب العينين الكبيرتين البريئتين، وحتى الأخطبوط الوردي الجميل. لكن آرثر لم يغير هواه أبداً. في وقت لاحق، نادى رتيلاءه المحشوة باسمِ «ماما» وهو ما وضع أمه في حيرة أشد.»

كنتُ أجمع كل حكاية من هذه الحكايات الطريفة، مثلما تُجمَع حجارة ثمينة وتوضع في صندوق خشبي. كان ذلك موعدنا اليومي، أنا وأمي، في جوِّ الصباحات اللطيف. تقرأ لي أمي، ثم تنهض، وفي كل يوم، بلا استثناء، أطالب برؤية صفحة حبة الكرز، وتستجيب أمي. وعندها أجثو فوق بلاط الأرضية، وأنكبّ فوق الرسمة حتى يكاد أنفي يلامس الصفحة، وأنا أحدق مذهولاً، إلى الحُمرةِ المفعمة بالحيوية.

«هل هذه الكرزة هي أنا، عندما كنت في بطنك؟»

في كل صباح كنت أتأكد من ذلك، وأجد بأنه شيء مذهل أنني كنت كرزة قبل أن أصبح صبياً صغيراً.

# 9

## الحاضر

كادت قهوتي تصبح الآن فاترة. لقد تهتُ في أفكاري. عجَّلتُ في ابتلاع مشروبي، وأنا أراقب الباب المتأرجح على بُعد أمتار قليلة من الممر، الباب الذي سيأتي منه أحد ما، لكي يخبرني أنّ بإمكاني الانضمام إليها. سحقتُ الكوب الكرتوني بين يدي، وألقيته في سلة المهملات، ثم تقدمتُ بضع خطوات في ذلك الاتجاه. أصدرت الأرضية المشمَّعة صريراً تحت نعلَي حذائي.

أخرجتُ تلفوني من جيبي. يشير الوقت فيه إلى الحادية عشرة واثنتي عشرة دقيقة ليلاً. مضت ساعتان على وصولنا. كنت أجد صعوبة في التخلص من ذلك الشعور بأنني في لحظة لا واقعية، يعززها بياضُ الممرات الصارخ والضوء الخافت. لقد وصلنا إليها، وها أنذا أعيش هذه اللحظة التي تخيلتُها عشر مرات، بل عشرين مرة، بالقدر نفسه من الاضطراب. الحادية عشرة واثنتا عشرة دقيقة ليلاً. هل تأخر الوقت للاتصال به؟ لإخباره؟ هو الذي قلَّما اتصلتُ به في هذه السنوات الأخيرة. هو الذي أصبحتُ من الآن وصاعداً أخشى الاتصال به، لأن من المرعب بالنسبة لي مواجهة ما يَحول بيننا من صمت، وارتباك، وتحفُّظ. كيف هي الحديقة؟ لا بأس، لا بأس... والبيت؟ لا يزال على حاله. كيف هي أنيتا؟ إنها بخير، وماري؟ بخير أيضاً. الكلمات نفسها تتكرر دوماً مثل لازمة متعَبة. الرجل الذي كان في السابق يلتقط

الغيم. الرجل الذي أصبح اليوم، وهو ينظر إليّ عبر ضباب كثيف، أعزل، عاجزاً.

بقي الباب المتأرجح بلا حراك، ولا نفَس، ولا صوت. تأخذ الأشياء وقتها. ويتعين علينا الصبر. دفقة من الطاقة المُستمَدة من الكافيين دفعتني لفتح شاشة هاتفي واتخاذ قرار. نظرتُ، وقد علقت غصةٌ في حلقي، محدقاً إلى كلمة «أبي» التي تومض على الشاشة.

«ألو؟»

كان سريعاً في تلقي المكالمة، سريعاً جداً. لا شك بأنه كان يعلم، بأنه كان لديه إحساس بما يجري.

«هذا أنا، قلتُ له.»

«هل أنت بخير يا آرثر؟»

«بخير، وأنت؟»

بدلاً من أن يجيب، سأل بصوتٍ أجش على نحو غريب:

«بدأ المخاض، أليس كذلك؟»

«نعم. لقد وُضعت أنيتا تحت الرعاية. أنت تعلم كيف تسير الأمور.. قد يطول الانتظار. علينا أن نتحلى بالصبر.» مكتبة سُر مَن قرأ

كانت أنفاسي قصيرة، كأنني ركضتُ لتوّي مسافة طويلة. أجاب أبي عبر السماعة «حسناً، حسناً». كان يكرر هذه الكلمات عدة مرات. وفجأةً تبين لي بأنني لم أعد أعرف ماذا أقول له، وبأنني رغم ذلك لا أستطيع إنهاء المكالمة على هذا النحو. لذلك سألت:

«ما الذي كنتَ تفعله؟ هل كنت تشاهد مسلسل *الخبراء: مانهاتن*؟»

«لا، كنت أشاهد برنامج الديكور على القناة السادسة. أنت تعرف كم تحبه ماري ...»

«صحيح.»

ساد صمتٌ آخر، ولكنه امتد أكثر.

«لا أريد إزعاجك أكثر من ذلك. سأتصل بك ثانيةً عندما يستجد شيء، اتفقنا؟»

«اتفقنا. قبلاتي إلى أنيتا."

«سوف تصل. إلى وقت لاحق!»

لا أعلم هل ردَّ بشيء، لأنني كنت قد أغلقتُ الخط. واحتجتُ إلى بضع ثوانٍ لكي أبتلع الغصة في حلقي، وأبدد المذاق المر في فمي.

صدرت حركة خلف الباب المتأرجح، وسُمعت أصوات. وفي اللحظة التالية انفتح الباب فجأة. ظهر الطبيب الذي يغطي رأسه بشبكة زرقاء.

«لقد تم الأمر وأعطيناها إبرة التخدير في الظهر. بإمكانك الانضمام إلى زوجتك.»

# 10

## الصيف الذي اكتشفت فيه بأن الكثبان حية، وأن نجم البحر يتمتع بقدرات خارقة

في ذلك الصيف، أرادت أمي أن تعيش عشرة فصول صيف في واحد. أرهقت نفسَها، وأرهقتْنا معها. كان ذلك أيضاً هو الصيف الأروع في حياتي.

لا زال كذلك، بعد ثلاثة وعشرين عاماً.

أرادت أمي أن ترى البحر، وأن تُريني براكين أوفيرني، وقصور وادي لالوار. كانت تلك خطة مكثّفة في مدة ثلاثة أسابيع. لم يتوقف أبي عن تكرار: «هذا كثير، إنه أكثر مما يجب»، لكنه اصطحبنا إلى شاطئ البحر على أي حال لأنه لم يكن يستطيع أن يرفض لأمي طلباً.

المكان الذي نمنا فيه كان عبارة عن منزل صغير أقرب إلى الكوخ، يقع على درب صغير مليء بالغبار والرمال. كان هناك كثبان رملية منتشرة حولنا، نمت عليها أعشاب خضراء طويلة. كان بعضها شوكياً واخزاً، وبعضها الآخر كان يتقطّع عند محاولة اقتلاعه. منعتني أمي من تسلق الكثبان، لأنني قد أتسبب بإتلاف النباتات التي تنمو عليها وتُبقيها ثابتةً في مكانها. كانت الكثبان الرملية بالغة الأهمية، فهي تحمي الناس ومنازلهم في حال هبوب العواصف أو في حال اشتداد حركة المد والجزر.

«علاوة عن كونها» أضافت أمي «موطناً طبيعياً للعديد من الحيوانات والنباتات».

انطلقت حملة استكشافنا، أنا وأبي وأمي، إذن، وسط الكثبان الرملية، في حرّ يوليو الخانق. وضع أبي على رأسه خوذة «لو كوك سبورتيف»، وارتديت أنا قبعتي الصفراء الليمونية، ولبست أمي قبعة من القش تزينها زهرة صناعية وردية اللون. اشترت أمي كتاباً عن الكثبان الرملية، كانت تحمله معها في كل مكان، مع سلة النزهة. بعد بضع سنوات، انتابني شك في أنها خلطت ببراعة بين الحقائق العلمية والأشياء الرائعة المتخيَّلة، لكنني كنت أصدِّقها في ذلك الوقت.

كشفت لنا أمي أن السحلية المنقَّطة، التي تعد أكبر سحلية في أوروبا، تعيش في الكثبان الرملية، إضافة إلى ضفدع عجيب له اسم علمي يصعب تهجئته، هو ضفدع مزود بقائمتين خلفيتين قاطعتين، ويستطيع أن يدفن نفسه عميقاً في الرمل، باستخدام تلك القائمتين الخلفيتين، نظراً لأن كلاً منهما مزودة، وهو الأمر الذي أذهلني، بما يشبه مجرفة صغيرة تُسمى «سكّين».

كذلك كان يعيش في الكثبان الرملية طائر «الزقزاق ذو الطوق غير المكتمل»، وهو طائر صغير وجميل للغاية، يزين أسفلَ عنقِه نِصفُ طوقٍ بني اللون، ويضع بيضه في الرمال. كان علينا السير بحذر شديد حتى لا نسحقها. ومن بين حيوانات الكثبان الرملية، كان هناك كذلك يعاسيب وجنادب وفراشات، وكافة أنواع الحشرات المنفِّرة التي كنت أعتبرها غير جديرة بالاهتمام: ذباب الرمل، الخنافس، الديدان، الحشرات كثيرات الأرجل المشعرة، وكذلك بالطبع، جِنّيات الكثبان الرملية، تلك المخلوقات الصغيرة المضيئة التي تومض ليلاً وتختبئ نهاراً.

أخبرتنا أمي أن مصدر الرائحة النفاذة التي كنا نشمها أثناء سيرنا على طول المسار الرملي الصغير، هو الزهرة الخالدة، تلك الزهرة ذات اللون الأصفر الساحر، والتي أصبحت بالنسبة لي رمزاً للصيف. كانت رائحتها تذكّرني برائحة الكاري وعِرْق السوس، وهي ذات أوراق رمادية فضية، وتتجمع أزهارها الصفراء الخردلية في باقات تشكل مظلاتٍ جميلة.

«إنها شُموس» أضفتُ بحزم. «شموس عطِرة.»

«كيف تعتقد أن الكثبان الرملية تشكلت؟» سألتْ أمي ذات يوم.

استمعتْ إليّ وأنا أتحدث عن جرَّافات تُملأ بالرمال ثم يتم تفريغها، كاتمةً ابتسامتَها بصعوبة متزايدة.

«*فيك*، ما رأيك يا عزيزي؟» خاطبَتْهُ متسائلةً.

وافق أبي معي مضخِّماً الصورة. لا بد أنها كانت ورشة عمل ضخمة مع عدد لا بأس به من أنواع أدوات الحفر والجرّافات: آليات ومعدات مختلفة، الأول للحفر والثاني للجرف والثالث لطحن الأحجار...

كانت أمي تضحك، وقد احمرَّ طرفُ أنفها بالكامل. «وأنتِ؟ سألها أبي. ما رأيكِ؟» كانت قصة أمي من أكثر القصص غرائبيةً، وتتعلق بالسيد رونشون الغاضب.

«السيد من؟»

«رونشون الغاضب، الرجل الذي لم يكن يرضيه شيء أبداً، وكان يمضي أيامه متذمراً من كل شيء. طردته زوجته، السيدة جوفيال المبتهجة، من المنزل. اذهب وتجول قليلاً، قالت له، إنكَ تُرهقني! ذهب السيد رونشون الغاضب إلى شاطئ البحر. عندما لا تكون الأمور على ما يرام، فإنه يستعيد البسمة عند شاطئ البحر. لا مكان للحزن أمام البحر، أليس كذلك؟»

هززنا أنا وأبي رأسينا موافقين بحماس.

«غادر إذن بقبعته، ونظارته الشمسية، ودولاب العَوم الأحمر. ولكني أراهن أنكما لن تحزرا ما الذي وجده عند وصوله إلى الشاطئ! لقد وجدَ آباءً وأمهات وأطفالاً، وجميعهم يستمتعون، يتراكضون في الأمواج، ويلقي بعضهم كراتٍ إلى البعض الآخر، ويبنون قلاعاً من الرمال! كانت الحياة تضجّ في كل أرجاء المكان، فيما السيد رونشون الغاضب لم يكن مستعداً لذلك، وهو الذي ظن أن باستطاعته أن يرغي ويزبد غاضباً بمفرده، دون إزعاج من أحد، جالساً تحت مظلة. كان يغلي من الغضب، لذا، أسند يديه إلى وركيه، وعقد حاجبيه، وأخذ أعمق نفَسٍ شهيقٍ في حياته لكي يُطلق أقوى زفير يقدر عليه. وعندئذٍ...»

كنت قد بدأتُ أضحك وأصفق بيديّ، وقد تخيلتُ تماماً إلى أين تريد أمي الوصول.

«زفرَ بقوة حتى طارت كل رمال الشاطئ وتراكمت، مشكِّلةً الكثبان الرملية.»

أمعنتُ النظر إلى أمي، مبتهجاً، وإن كنتُ متشككاً بعض الشيء:

«هذه تخيلات!»

بدت جملتي شبيهة بسؤال.

«لكنها مضحكة، أليس كذلك؟»

«نعم.»

في المساء، فتح أبي كتاباً اشترته أمي وقرأ لنا كيف تشكّلت الكثبان الرملية في الواقع، بسبب حركة الرياح وفِعل الأمواج. وما أذهلني حقًا هو اكتشاف أن الكثبان الرملية تتغير أشكالها باستمرار.

«هل هذا يعني أنها إذن حية؟»

«نعم، بالطبع، أجابت أمي.»

أمضيت بقية إجازتي أراقب الكثبان الرملية، واقفاً بلا حراك، دون أن أرمش بعيني تقريباً، أريد أن أباغِتها وهي تتحرك أو تنتقل أو تتموَّج. لكنني لم أطق صبراً. بالمقابل، لم أطأ بقدَمي كثيباً رملياً مجدداً أبداً، حتى عندما يكون ذلك ممكناً بعيداً عن نظر أمي، ولا حتى لكي أقطف واحدة من تلك المظلات الصفراء الخردلية برائحة الكاري، التي تجذبني بشدة. كنت أخشى بشدة أن ألحق أذىً بالكثيب.

في ذلك الصيف، كان هناك عجائب أخرى اكتشفناها. الطريق الرملي الذي يقع عليه كوخُنا، كان يؤدي إلى البحر. وهناك، كانت تنتظرنا كنوز أخرى. عالمٌ كامل يختبئ تحت الأمواج، وينكشف مع انحسار المد. السرطان الناسك، دمَّلة البحر، المحار ذو القرنين، بلح البحر، محار البوكارد، المحار المِشطي... كنت أجمعها وأطلب من أمي أن ترسمها لي في دفتر رسمها. في هذه الأثناء، تولّى أبي مهمة التعرف على تلك الأنواع المذكورة من المحار، وإعطائنا درساً عن كل نوع. هكذا اكتشفت أنني أحب بلح البحر حقاً، وأنني لم أعد أريد أكله. لن آكله ثانيةً أبداً، فهو يعيش في مستعمرات على الصخور، وهذا يعني أن له أصدقاء، وربما حتى عائلة. كان السلطعون الأخضر أيضاً واحداً من كائناتي المفضّلة، بسبب اسمه الآخر الذي يسمى به، وهو السلطعون الحانق. خطر لي بأنه حتماً مقاتل مقدام وشجاع، يتمتع بقوة خارقة. كما أكدت لي أمي بأنه يتواجد على كوكب أورانوس، ـ نعم نعم! ـ وبأنه يتولّى هناك حراسة مدخل قصر حارس العجائب، مسلحاً بدروع يصنعها لنفسه من أصداف المحار المشطي. هذا السلطعون لونه أخضر هناك أيضاً، ولكن انخفاض درجات الحرارة، يجعل لونه

الأخضر فاتحاً، أقرب إلى لون التفاح. بالطبع، لم تعد هناك حاجة حقيقية للمحاربين على كوكب أورانوس، لأن جميع المخلوقات تعيش بحرية وسعادة، وفي سلام تام، لكنهم لم يريدوا جعل السرطانات عاطلة عن العمل، فقد سبق لها أن أنقذت قصر العجائب من هجوم الغربان الشريرة، قبل نحو مئة عام. لكن هذه قصة أخرى، ختمت أمي، سنجد فرصة لاكتشافها لاحقاً.

الشيء المذهل الذي حاز على إعجابي بالكامل هو نجم البحر، لأن أبي أخبرني بأنه يمتلك قوة خارقة، بحيث أنه إذا قُطع أحد أذرعه، فإن النجم لديه القدرة على جعله ينمو مجدداً. أخبرني أبي أن نجم البحر، في العالم، يمكن أن يكون أحمر أو أزرق فاتح، أو ورديا مرجانياً، أو برتقالياً، وأنه يمكن أن يكون مخططاً أو مرقطاً. لكننا خلال ذلك الصيف، لم نرَ سوى نجم البحر البني الفاتح، بلون الرمال. عرضت أمي أن ترسمه لي، كما أتمنى أن أراه تماماً. وهكذا، أصبح نجم البحر في دفتر رسمِها، أزرق اللون، وله فوهات بيضاء.

عندما غادرْنا كوخَنا في قلب الكثبان الرملية، احتوى دفتر رسم أمي ما لا أستطيع إحصاءه من العجائب. بدت أمي شاحبة رغم بعض حروق الشمس على أنفها، كما ظهرت هالات سوداء تحت عينيها. أعلن أبي أن الوقت حان من أجل العودة إلى المنزل، أو إلى بحيرة الطاووس، حيث يمكننا إنهاء العطلة هناك بارتياح. لكن أمي أعلنت:

«مستحيل! هل تعبتَ؟ أنا لم أتعب!»

كانت أمي قد بدأت تُكثر من الكذب.

# 11

## اليوم الذي كسرتُ فيه قلبَ أمي

من زياراتي لقصور وادي لالوار، أتذكر قبل كل شيء حجم الإرهاق الذي وصلتُ إليه في تلك الساعات التي أمضيتُها أتجول تحت شمس ساطعة، وحرارة خانقة، وطوابير انتظار طويلة، وأكشاك تذاكر، ثم أرضيات مبلطة كنتُ أخترع فوقها ألعاباً: البلاط الأسود للتماسيح، والأبيض للحلقات الخشبية[1]. إلا أن هناك تفاصيل قليلة تمكنت من إثارة دهشتي: الأبراج الدائرية العالية، والجسور فوق الماء، والحدائق التي لم تكن حتى جدتي لتستطيع المحافظة عليها بهذا الشكل.

كنا ننتقل من غرفة إلى أخرى، ونحن نستمع إلى مرشد سياحي. كانت أمي تجلس كلما سنحت لها الفرصة. طلب منها أبي أن تشرب الماء، وتبقى هناك، قائلاً بأننا سنعود إليها، لكنها كانت عنيدة، وراحت تتبعنا بخطواتها البطيئة والصغيرة. استمرت في سؤالي: «هل أحببتَ هذا يا كنزي؟» أو «هل تعتقد أن هناك أميرةً ما، لا تزال مختبئة هنا؟» أو حتى: «هل كان سيروق لك أن تعيش هنا؟ أي غرفة كنتَ ستختار؟»

كنت أشعر بالسأم، وتؤلمني قدماي.

---

(1) التمساح وحلقات الخشب تندرج ضمن نماذج من ألعاب جماعية للصغار، لتنمية مختلف المهارات عند الطفل، في مراحل عمرية مختلفة.

في عصر يوم شديد الرطوبة، كنا عائدين لتوِّنا من إحدى جولاتنا الكثيرة. كانت أمي تنتظرنا في الخارج، تحت ظل شجرة. قفزت دفعة واحدة عندما رأتنا، وهتفت بحماسٍ شديد، قائلةً لي:

«إذن، هل أحببتَ الجولة؟ هل أنت مستعد لاستكشاف براكين أوفيرني؟»

قبل أن يتاح لأبي وقتٌ للاعتراض، ارتفع صوتي المرتجف، صوتٌ ساخط، متمرد، ومنهَك:

«لقد مللت من العطلة!»

ضربتُ الأرض بقدمي، وعقدتُ ذراعيّ على صدري. لم أتوقع أن أتسبب بهذا الذهول الصامت عند أمي وأبي. لبثت أمي بلا حراك، ضائعةً في فستانها المزهر.

«آرثر» قال أبي ببطء. «ما الذي يجري؟»

«سئمت من العطلة! أريد العودة إلى المنزل!»

ساد صمتٌ آخر، ونظر أبي إلى أمي وهو يسند مرفَقَها، كأنه شعر بأن أمي قد تترنح، فاقدةً توازنها.

«لا أريد رؤية البراكين!»

«حسناً» قال أبي. «كما تشاء.»

«أريد العودة إلى غرفتي، إلى مضمار سياراتي، إلى دراجتي. أريد الذهاب إلى تلّتي!»

«سنعود إلى الفندق أولاً، ونتحدث في الأمر لاحقاً.»

لم تتحرك أمي. بدت أشبه بتمثال من الملح، وفي الوقت نفسه، بدت كأنها طفلة صغيرة تكبح دموعها.

أثناء توجُّهنا إلى السيارة، ضربتُ الأرض بقوةٍ بقدمي. سار أبي وأمي ببطء، فيما كان أبي يتكلم همساً، وأمي لا تقول شيئاً. وعندما أصبحنا داخل السيارة وانطلقت بنا، قالت أمي بصوتٍ ضعيفٍ لم أسمعه منها من قبل:

«أنا آسفة يا آرثر. ظننتُ بأن القصور تعجبك.»

لم أعرف بأي شيء أجيب، لأن المسألة ليست في كون القصور لا تعجبني، بل في كوني لا أحتاج إلى قلاع وقصور، أو جسور، أو أجواء أمراء وأميرات، ولا حتى إلى براكين، لكي أمضي عطلةَ صيفٍ رائعة. لم أكن بحاجةٍ إلّا إلى تراب أحفر فيه، وإلى أمي التي تروي لي حكايات عجيبة تجعلني أغفو بسهولة، وأبي الذي يتظاهر بأنه يصدقها، وأثر الشمس على الأنف، وسلطعونات مرسومة على دفتر رسم أمي.

كل ما وجدتُه لكي أقوله في تلك اللحظة، أمام الكرب الذي أصاب أمي:

«أنا أفضِّل تلَّتي. لم أعد أريد الذهاب في عطلة الصيف إلى أي مكان، إلّا إلى الكثبان.»

ساد صمت، ولكي تكسره أمي، شغَّلت راديو السيارة، لكي تمتلئ السيارة بالموسيقا.

«حسناً، يا كنزي»، قالت ببساطة.

ما العمر الذي نعي فيه الأذى الذي نسببه للآخرين، دون أن نقصد؟ في ذلك اليوم، في السيارة، لم تتوفر لي وأنا في ذلك السن الصغير، ذرة وعي بذلك. لم أدرك بأنني حطمتُ قلب أمي. لقد بقيتْ دهراً وهي تستحم، في الفندق. كان أبي ضائعاً إلى درجة أنه شغّل لأجلي التلفزيون دون حتى أن أطلب منه ذلك.

عند المساء، كان غضبي قد زال، مع ذلك كنت سعيداً حين علمتُ بأننا سنسلك طريق العودة إلى البيت اعتباراً من الغد. تناولنا العشاء في شرفة مطعم جميل على ضفة نهر لالوار، حيث عُلّقت فوانيس على الأشجار. ورغم أن اعتدال الهواء، كانت أمي مُتدثرة بسترة صوفية، وترتعش كأنها تشعر بالبرد.. أمام كوب مثلجاتي المُغطّى بالكريمة المخفوقة، سألتْني:

«ماذا تُريد أن تفعل على تلّتِك يا كنزي؟»

«سأبحث عن ديدان أرض. سأزرع أشجاراً. وسأستمع إلى حرب أورانوس.»

«حرب أورانوس!»

«حربه في مواجهة الغربان.»

ارتسمت ابتسامة على وجه أمي مثل لهب شمعة. ابتسامة مشرقة ومُتلألئة.

«معكِ.»

ثم أكملتُ وأنا ألتفتُ إلى أبي الذي كان يُحرّك قهوته بالملعقة.

«ومع أبي أيضاً.»

لاحقًا، بينما كنا عائدين سيراً على الأقدام، إلى الفندق، أمسكت أمي بيدي وضغطت عليها بقوة. وأعلنت:

«أنتَ علّمْتَني اليوم درساً أساسياً. كنتُ أظن أنني أفعل الصواب، لكن الحق معك أنت. إننا دائماً ما نبحث عن السعادة بعيداً عن بيوتنا. نعتقد بأننا نجد السعادة في المناظر المختلفة، والغرائبية، وفي الروائح الجديدة، والمباني المهيبة. لكن هذا غير صحيح دائماً، أليس كذلك؟ أحياناً تكون السعادة هي أن نكون نحن الثلاثة جالسين فوق تلة ترابية.»

كانت عيناها تلمعان في الليل مثل حَجَري هيماتيت[1]. أومأت برأسي بكل يقين الطفل.

«نعم. ثلاثتنا على التلّة. وعصاي.»

في ذلك اليوم، كنتُ إذن قد علّمتُ أمي شيئاً دون أن أدري. فقط في وقتٍ لاحق، عندما كبرت واسترجعتُ ذكريات عطلة الصيف الأخيرة، تلك، التي أمضيناها نحن الثلاثة، أدركتُ بأنني طعنتُ قلبها أيضاً، على النحو الذي لا يقدر عليه سوى الأطفال، ببراءتهم الخرقاء والقاسية.

(1) الهيماتيت يسمى أيضاً، حجَر الدم، أو **الشَادَنَج، أو الحجر الهندي...**

# 12

## اليوم الذي سقطت فيه السماء فوق رأسي

في أحد الأيام، شرحت لي الخالة كاسي عبارةَ «سقطت السماء فوق رأسي»، التي كانت قد استعملَتْها بشكل عابر خلال محادثة مع أمي. وحين رأتني أرفع رأسي نحو القبة السماوية بشيء من الخوف، ضحكتْ، ثم شرحت لي بأنها طريقة في الكلام فقط. لأن السماء باقية في مكانها.

كان الكبار يستخدمون هذه العبارة للتعبير عن شعورهم بصدمةٍ تلقُّوها، أو أمام خبر غير متوقع، سمعوه. بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك، فشرحت لي بأن العبارة تعود إلى الغاليِّين الذين كانوا يعتقدون بأن السماء تستند إلى أعمدة، وأنها ستنهار مع اقتراب نهاية العالم.

لا أتذكر بالضبط عن أي شيء كانت الخالة كاسي تتحدث عصر ذلك المساء، ولكنني أتذكر أنني، بينما استأنفت هي وأمي حديثهما، رحت أرمق السماء بعين الحذَر ما نوع الشيء الذي يمكن أن يجعلنا نكابد هذا الشعور الرهيب والمهيب والمُزلزِل؟

لم أجد إجابة، ثم حلّقت فراشةٌ على العشب القريب. لم أكن قد فكرت من جديد في الأمر أبداً، حتى ذلك الصباح.

كنا قد عدنا منذ يومين فقط من رحلة العطلة الصيفية، عندما استيقظتُ واكتشفتُ جدتي تجلس في غرفتي، على طرف سريري كأنها

ظل عملاق. استقامت حين رأت بأنني استيقظت، وغنَّت بصوتٍ غريب ذي نبرة عالية:

«كوكو، مرحباً يا عصفوري الصغير!»

التقطتْ نظرتي الباحثة عبر الباب عن ظلِّ أمي، وصوت مذياعها في المطبخ، ورائحة القهوة أو عطرها الذي يذكرني برائحة مشاتل النباتات.

«اضطرت أمك للمغادرة. ستعود عما قريب.»

كانت يدا جدتي تعجنان ملاءة السرير، وابتسامتها تبدو محتجزَة وجامدة.

«إلى أين؟»

كانت مستمرة في عجن الملاءة مصدرةً همهماتٍ غير محددة.

«وأبي؟»

«أبوك رافقها.»

«إلى أين؟» كررتُ سؤالي.

قفزتُ من السرير قبل أن يتاح لجدتي وقت لردة فعل. أردتُ التحقق بنفسي. ذهبت أولاً إلى غرفة نوم والديّ. كانت أغطية سريرهما في حالة فوضى، وهناك قطع ملابس ملقاة على الأرض. ثم إلى الحمّام. كان يحدث أحياناً أن أبحث عن أمي في كل مكان، لأجدها هناك، تتفحص بشرتها في المرآة، وتخربش حاجبيها بأداة عجيبة على شكل ملقط. لكنني هذه المرة لم أجدها هناك. وأخيراً إلى المطبخ، في آخر الدرج. لا وجود لأمي. كانت أقلام تلوينها على طاولة الصالون، مع كومة من الرسوم، لكن كتاب حياتي لم يعد هناك.

«آرثر، إلى أين تركض هكذا؟ قلتُ لك بأنها ستعود.»

كنتُ وسط المطبخ، أدور حول نفسي لكي أجمع الإشارات. ليس هناك فنجان قهوة متّسخ، ولا رسالة صغيرة بخط اليد. عادةً عندما تغيب أمي عن المنزل، كانت تترك رسالة. أخذت دقات قلبي تتسارع، وأفكاري تختلط. كنت بحاجة إلى الهواء.

تلك كانت هي اللحظة التي شعرتُ فيها بذلك الكابوس الثقيل الذي أطبق على رأسي، وبتر ساقيّ، وجعلني أشعر وكأنني أُسحَق بعنف. لا أصدق أن أمي غادرت إلى أورانوس دون أن تخبرني، لأنها ما كانت لتغادر إلى أورانوس دون أن تتناول قهوة. في الليلة السابقة، كانت تقرأ لي قصة في سريري، وأعلنت:

«غدًا، سنزرع بذور نَفْل رباعي الأوراق، على تَلَّتِك.»

كانت قد وجدت كيساً من البذور. بدا الأمر وكأنه وعد. وهذا الصباح، اختفت. في هذا الصباح، كانت السماء تسقط على رأسي.

«خذ الهاتف يا آرثر. اتصل بوالدك. سيشرح لك.»

ناولتني جدتي الهاتف، الذي كان يرن بالفعل. رنة، رنتان، ثم جاء صوت أبي، الذي بدا مبحوحاً تماماً.

«نعم، آن ـ ماري؟»

لا بد أنه ميَّز أنفاسي المتسارعة، لأنه استدركَ مصحِّحاً:

«آرثر؟»

«أين أمي؟ على كوكب أورانوس؟»

خيَّم صمت. وعبر الهاتف كان يُسمع صخب، ضجيج خطوات، وأصوات بشر، كأننا في محطة قطار.

«الـ... حسناً، الـ... حارس العجائب... هل تذكر؟»

«نعم.»

«سيجري اختبارا أخيرا لها.»

«ما معنى هذا؟»

«معناه أنه بحاجة إلى شيء من المساعدة. سيستغرق الأمر يوماً أو يومين فقط.»

«كاذب!»

جفلت الجدة بجانبي. حدقت إلى الهاتف بصرامة، كما لو كانت غاضبة منه لسبب ما. تابعتُ:

«أمي لم تقل شيئًا. أمي لم تترك رسالة!»

تنحنَحَ.

«لم يسعفها الوقت.»

«كاذب، كاذب، كاذب!»

أخذتُ أردد بأقصى سرعة في المطبخ.

«حارس العجائب منعها من ذلك، هذا كل شيء!» قال أبي فجأةً.

«لماذا؟»

«لأنها مهمة سرية. لأن أناساً أشرار كان بإمكانهم إيقافها.»

«لماذا؟ أي أشرار؟»

«الـ... حسناً، أنت... تعرف؟»

كانت الجدة الآن تهز برأسها، وهي لا تزال تحدق إلى الهاتف بنظرة غاضبة.

«المقاتلون السود،» همس أبي.

«من هم؟»

«إنهم أناس يريدون أن تكون السماء دائماً سوداء، بلا ضوء، ولا لون. حتى أنهم شكلوا عصابة تدعو للقضاء على الغيوم! لو أنهم... لو عرفوا بأن أمك على وشك الوقوف إلى جانب حارس العجائب ومساعدته في الحفاظ على ألوان السماء، لكانوا...»

«قتلوها؟»

«لا. لكانوا، لنَقُل... منعوها من الإقلاع.»

«هل كانوا سيضعونها في السجن؟»

«أوه، لا أعتقد ذلك...»

«بلى! صرختُ مؤكِّداً.»

«ربما»، قال أبي.

بدأ قلبي يستعيد إيقاعه الطبيعي، وبدأ ذعري يتلاشى. تساءلتُ إذا ما كان المقاتلون السود يضعون عصابات سوداء على جباههم، وإذا ما كانوا يرتدون أحذيةً ذات مسامير، وإذا ما كانوا يحملون سيوفاً.

«اسمع يا آرثر، أنا مضطر لتركك. سأعود إلى المنزل في نهاية اليوم. كن لطيفًا مع جدتك، اتفقنا؟»

أضاف أبي أشياءً أخرى، قبلاتٍ أرسلها لي، ووعوداً بأن الوقت سيمر بسرعة، وأشياء يراها الكبار مهمة لكن الأطفال لا يستمعون إليها أبداً. ناولتُ الهاتف إلى جدتي، التي تفاجأت:

«إلى أين أنتَ ذاهب؟»

كنت أمشي بخطى سريعة نحو المدخل.

«ذاهب لانتظار أمي على تلَّتي!»

وكذلك لأتأكد من أن السماء لا تزال معلَّقة بشكل ثابت في مكانها، ولونها ما يزال أزرق.

كان ذلك هو أطول يوم في حياتي القصيرة. تفننت جدتي في إيجاد طرق لإلهائي، لكنني رفضتُ مغادرة تلتي، إلا في وقت الوجبة الخفيفة. إنه ذنبُ كعكة الشوكولا التي أُخرجت للتو من الفرن.

عاد أبي مساءً، لكن وجهه كان مجهَداً تماماً، وأهملَ الرد على نصف أسئلتي بشأن المقاتلين السود، والصاروخ الفضائي الذي حمل أمي، وزي رواد الفضاء الذي ارتدته. وعندما اقترح أن يقرأ لي قصة قبل النوم، رفضتُ قائلاً:

«إما أمي أو لا أحد.»

رفضتُ تقبيله في ذلك المساء، ورفضتُ محاولاته لعناقي.

في مساء اليوم التالي، حين عاد أبي من العمل، كان يحمل ورقةً بخط أمي.

«هل أقرأها لك؟»

كنتُ أشد تشوقاً من أن أرفض. لذا، جلس أبي على الموكيت بجانبي، وأخذ يقرأ باهتمام، رغم الارتعاش الغريب في صوته.

*بابا رائع.*

*قام بابا بنفسه بقطع الحبل السري لآرثر عند ولادته.*

*لم يرتجف.*

*خلال الأسابيع الأولى لآرثر، في العالم، أمضى بابا ليالٍ بطولها وهو يضعه على صدره، جالساً في أريكة غرفة المعيشة، لكي يدع ماما ترتاح. كان يرشّ عطر ماما على ملابسه لكي يطمئن آرثر ويهدئه. حفظ بابا أغنية «العنكبوت الغجري» عن ظهر قلب لكي ينشدها في السيارة، لأنها كانت الشيء الوحيد الذي يُهدئ آرثر.*

*قطع أربعين كيلومتراً في منتصف الليل للعثور على العنكبوت القماشي دودو، الذي سقط من عربة آرثر أثناء نزهة في الغابة.*

*بابا هو الذي أفلت يد آرثر لكي يخطو خطواته الأولى عندما لم تجرؤ ماما، وهو من تلقّاه على بُعد أمتار قليلة، بالقبل من عنقه الممتلئ.*

*عندما بلغ آرثر عامه الثالث، كانت الهدية التي طلبها من بابا هي «جبل»، فبنى له تلة. جاء بجرافة لهذا الغرض، وأعلن آرثر أن ذلك كان أجمل عيد ميلاد في حياته.*

*بابا هو الوحيد الذي يجعل آرثر ينفجر ضاحكاً بصوت عالٍ حين يقلِّد أمامه صوت الحمار أو يمارس لعبة الهيلا-هوب بحزام رداء الاستحمام. بابا أفضل من أي شخص آخر في تهدئة موضع الألم. وهو الذي يطارد الوحش تحت سرير آرثر، ويجد الألعاب التي ضاعت، تحت السجاد أو الخزائن، ويعرف أسماء الطيور في الأشجار، ويُعدّ أفضل عصير برتقال طازج في العالم. بابا يحب آرثر أكثر من حبه لـ ماما، أكثر من حب الأرض للمطر، وأكثر من حب النحل للزهور.*

*بابا رائع، وآرثر كنز ثمين.*

*ماما التي ستعود قريباً... من بين النجوم.*

سلمني أبي الرسالة، رتَّبتُها كشيء ثمين في علبة أسراري، التي هي عبارة عن صندوق خشبي صغير مليء بزهور أقحوان مجففة، وقطع زجاجية مصقولة، ونقود معدنية بقيمة خمسة سنتيم، وحبّات قديمة من ملبِّسات التعميد.

# 13

## الحاضر

كانت أنيتا ممددة على ذلك السرير الأبيض، مع تلك الأجهزة التي تومض وتطلق نبضات صوتية من حولنا. رحت أضغط على يدها، خائفاً من إفلات أصابعها، ومن رؤيتها تستسلم للألم، لكنها كانت تبتسم، محافظةً على كرامتها. مثل أمي.

«هل أنت بخير؟»

لم يبدأ مفعول إبرة التخدير. يحتاج الأمر إلى ربع ساعة.

مع ذلك، كانت أنيتا تطلق الدعابات لكي تُنسيني، ولكي تتمكن هي نفسها من نسيان الألم الذي يعود على شكل أمواج عاتية تتلاطم بعنف على الشاطئ. هذه هي الصورة التي تلقّيناها خلال دروس الاستعداد للولادة.

«لا بأس. الفِراش مريح جداً، والإطلالة ليست رديئة، أليس كذلك؟»

أخذت أنيتا تكافح ضد هجمات الألم، متظاهرةً بأنها لا تعاني من شيء، وأنا أكافح بصعوبة للعودة إلى الواقع.

«هل لا يزال موجوداً في العلية، بين الأشياء القديمة؟»

«عن أي شيء تتحدث؟» قالت أنيتا.

«عن ذلك الصندوق الخشبي الصغير. صندوق طفولتي.»

أشار الجهاز إلى حدوث انقباض، وتشنج وجه أنيتا وراحت تطلق زفرات قصيرة متقطعة. انتظرتُ أن تنحسر الموجة وتلتقط أنيتا أنفاسها.

«الصندوق الذي زينت غطاءه بمجموعة من الصور اللاصقة. أعتقد أنها كانت زرقاء.»

«نعم، تذكرت. أظن أنه هناك، مع العلب التي لم نجرؤ على إفراغها.»

ارتخى كتفا أنيتا. غاصت في الوسادة بشيء من الارتياح. لقد فقدت شيئاً من بريقها.

«لماذا؟» سألتْ.

«لا لشيء.»

حدقتْ إليّ، دون أن تنخدع. إنه شيء يسحرني فيها، تلك القدرة على قراءة أفكاري.

«هل تفكر فيها؟»

هززتُ كتفي، واتجه نظري نحو النافذة. أنيتا على حق، كان المنظر أجمل مما هو متوقع في مكان مماثل. كنا نُطلّ على موقف السيارات الخلفي للمستشفى. خلف الخرسانة، والخطوط البيضاء، وبعض السيارات، لدينا إطلالة مفتوحة على الوادي النائم، بلا مبانٍ، ولا إضاءة مبهرة. وبالفعل، يُمكننا رؤية السماء، الشيء الذي لا يتاح لنا إلا نادراً. إنها عميقة السواد، ويمكن رؤية النجوم فيها.

«أنتَ لم تُخبرني عنها شيئاً، باستثناء أنها كانت تكذب أكثر مما يجب، وأنها أخفت عنك حقيقة مرضها، وغادرت مثل اللصوص.»

«ركّزي على تنفسكِ. هذا ما علمونا إياه، أتذكرين؟ هل تريدين بعض الماء؟»

«كلِّمْني عنها. سيُساعدني ذلك على التحمل، كما تعلم.»

نهضتُ وتوجهتُ إلى المغسلة. أدرتُ لها ظهري بإصرار وأنا أملأ لها كوباً من الماء. سبق أن أحببتُ نساءً قبل أنيتا، لكن ليس هكذا

أبداً. أنيتا ترسم. هل هذا سبب اختياري لها؟ إنها مهندسة معمارية، تعمل بشكل رئيسي على الكمبيوتر، لكنها ترسم في المساء أو في عطلة نهاية الأسبوع. الأمر بالنسبة لها أشبه بالتقاط الأنفاس. كانت تحب الزهور، وترسم زهوراً، وتسحرها الأنواع النادرة منها، فكانت تفضّل زهرة الأوركيد التي تشبه الحمامة. لكنها كانت تحب أن ترسم أيضاً زهرة البورسلين، وزهور طائر الجنة، وياسمين جزر الهند الغربية. وعلى عكس أمي، لم تعرف أنيتا الكذب. إنها صريحة وعفوية بشكل مُخيف. حين عدتُ إليها بكوب الماء، سألتني:

«ماذا يوجد في ذلك الصندوق الخشبي؟

«أشياء طفولية. لا شيء مميز.»

«لكن بينها شيئاً مميزاً، أليس كذلك؟ «

«نعم... رسالة من بين أشياء أخرى.»

«أي رسالة؟»

«وقوقعة حلزون. زرقاء. ببريق فضي. قالت أمي إنها شظايا من ثلج أبدي.»

«من أين أتيتَ بها؟»

«هي التي أحضرَتْها لي. من إحدى إقاماتها في المستشفى. أخرجَتْها من جيبها لكي تُنسيني رحيلها الفجائي، وغيابها ثلاثة أيام، والآلة الغريبة خلفها والتي تتنفس من خلالها.»

بمرور السنين، تصاعد الغضب، وشوّه بعض ذكرياتي. ما زلت أتذكر تماماً صوتها: «*انظر يا كنزي. لقد اكتشفتُها عند مدخل القصر! قوقعة حلزون قطبي! يا إلهي، كم لدي من الأشياء لأخبرَكَ بها!*»

«سنبحث عنه في العلية» قالت أنيتا وهي تضغط على أصابعي بين أصابعها.

أفلَتُّ منها. لا أريد أن تشدّ أنيتا أزري. ليس الليلة. أنا من يجب أن أقف بجانبها وأقوّيها، وليس العكس. عدت للتركيز على شاشة العرض، لكن أنيتا واصلت: «من المؤسف أنك حاولت إحراق كل شيء. كنت أتمنى لو أنني قرأتُ رسائلها...»

هززتُ رأسي. ليس الآن. هذا يشعرني بغصة في حلقي، وينفطر قلبي من الاعتراف بذلك، لكنني، حتى وإن أصريتُ دائماً على عكس ذلك، أو شرعت في إخفاء كل شيء بغضب شديد، فقد كنتُ أنا أيضاً أتمنى لو أتمكن من إعادة قراءتها، والعثور في سطورها على شيء من أمي، من رسوماتها، ومن مخيلتها اللعينة.

«ألم ينقذ والدُك شيئاً منها؟»

«ربما.»

«اِسْأله هذا السؤال.»

«لن أسأله.»

«لماذا؟»

لا فائدة من الجواب، لأن أنيتا تعرف ما بيننا من تحفظ وحَرَج، ذلك الحاجز القائم بين قلبي وقلبه، علماً أن أمي حاولت أن توحِّدنا قبل رحيلها. *بابا إنسان رائع، وآرثر كنتر*. لكنها فشلت. لم أعد أذكر سبب كراهيتي الشديدة لأبي طوال السنين التي تلت. ربما لأنه تركها تروي لي كل تلك القصص المختلقة دون أن يتدخل. ولأنه انخرط هو نفسه في أكاذيبها، ولأنه لم يستطع أن يبقيها بيننا. إذا كان ألمي بحاجة إلى مجرى يصب فيه، فلن يكون سوى أبي.

# 14

## اليوم الذي زرعتُ فيه شجرة موسيقية

كانت أمي تنتظر وقد وضعت في يدها الممدودة قوقعة حلزون. لكنني لم أتحرك. كانت تلك الآلة ذات العجلات واللون الأبيض الساطع، التي تجرها خلفها، تستأثر بكل انتباهي. كان هناك أنبوب يربط الآلة بأمي، ثم ينقسم إلى فرعين صغيرين عند منخريها.

«ما هذا؟»

«حلزون قطبي. لا بد أنه هجر موطنه من أجل...»

«لا، أقصد هذا!»

«أوه، هذا...»

كانت قد ابتسمت، وفي ابتسامة أمي، كان هناك كسوف للشمس، شيء من الضوء والظلام، مليء بالتناقضات. «يجب أن أهيء نفسي للحياة على أورانوس.»

«ما معنى هذا؟»

«معدَّل الأوكسجين ليس هو نفسه هناك. الجو مختلف. يجب أن أتدرب على التنفس بشكل مختلف، مثلما يفعل الرياضي. الأمر برمته تقني جداً وممل إلى أبعد حد، لكن حارس العجائب طمأنني إلى أنني بعد بضعة أسابيع، لن أحتاج إلى هذا الشيء، وسأشعر وكأنني سمكة في الماء. أساساً لقد أرسل لك تحياته، ووضع لك مفاجأة صغيرة أخرى في القوقعة!»

اقتربتُ أخيراً من القوقعة الزرقاء ذات البريق الفضي. أمسكت بها وقلبتها في يدي. تدحرجت منها كُلَّة رمادية صغيرة على راحة يدي.

«ما هذا؟»

«قطعة من فضلات الحلزون.»

زممتُ شفتيّ باشمئزاز. أي قرفٍ هذا! أفْلَتُّ فجأةً هدية أمي من يدي. سقطت القوقعة متهاديةً فوق مشمع الأرضية. مضت الكُلّة تتدحرج إلى مسافة أبعد.

«هذا مقرف!» صرختُ.

«هل تمزح؟» قالت أمي باستنكار. «إنها شيء ثمين جداً! يقوم حارس العجائب بجمعها، ثم يحفظها بعناية. وخلال فصل الربيع القطبي، يتم دفنها في ثلج المسطحات الجليدية. وبعد بضعة أسابيع، تبدأ أشجار الموسيقى بالنمو.»

«أشجار ماذا؟»

«إنها أشجار ذات أوراق تشبه لفائف صغيرة يميل لونها إلى الأصفر. عندما تهب الرياح، تهتز الأوراق وعندما يحتكّ بعضها بالآخر، تُصدر نغماتٍ رائعة، أنقى نغمات في الوجود. يقول حارس العجائب بأنها مزيج من بيانو شوبان، وكمان فيفالدي، وقيثارة بوالديو[1]. شيء مذهل.»

لم أفهم كل ما كانت تشير إليه أمي، لكنني فهمت الفكرة الأساسية، وهي أن عليّ بشكل قطعي استعادة هذه الكُلّة. انحنيتُ على أربع فوق الأرض، ورحت أتلمَّس الأرضية محاولاً العثور عليها.

---

(1) فرانسوا آدريان بوالديو (1775-1834). مؤلف موسيقي للأوبرا بالدرجة الأولى. يلقب بـ موزار الفرنسي.

«هل تنمو هذه الشجرة على الأرض؟» سألتُ.

«لا أعرف. لكن يُمكننا المحاولة. أين تُريد زراعتها؟»

«على تلَّتي!»

كنا في نهاية الصيف، وبقيت درجات الحرارة مرتفعة. كانت أمي تجرّ معها، في كل مكان، آلتَها العجيبة للتنفُّس فوق كوكب أورانوس. كانت الخالة كاسي والجدة، تتناوبان على الاتصال بالمنزل، كل نصف ساعة تقريباً، فتسألان عما إذا كانت الأمور بخير، فتجيب أمي: «بخير، نعم، نعم، سنلهو بتخمين أشكال الغيوم»، أو «سنذهب لكي نراقب النمل»، أو «سنذهب لسقاية شجرة الموسيقى».

لا أعرف عن أي شيء كانتا تسألان أمي، لكنها كانت تجيب بحزم:

«لا، أنا بخير تماماً. لا داع للقلق!»

وعندما تغلق الهاتف، كأنت تقلب عينيها نحو السماء متبرِّمةً، وتقول:

«إنهما تسببان لنا الإرهاق، أليس كذلك؟»

كنا قد نصبنا خيمة هنود حمر مخروطية على قمة التلة، ورحنا نمضي فيها ساعات طويلة إلى درجة أن أمي خشيت أن نُصاب بضربة شمس. كان أبي هو من بنى لنا الخيمة من ملاءات قديمة وقضبان خيزران. احتوت خيمتنا على ماء، ووسائد، وبعض الكتب، وعلبة من كاتو الشوكولا. كانت مكاناً صغيراً جداً، لكننا كنا ننام فيه وقت القيلولة، حتى أن أمي أساساً كانت تفعل ذلك أكثر مني. قالت: أن الرحلة إلى أورانوس كانت مُرهقة وأن السفر قد أرهقها.

«سأكون على كوكب أورانوس قبل عيد الميلاد»، أسرّت لي في صباح أحد الأيام.

بالنسبة لي كان عيد الميلاد لا يزال يَبعد سنين ضوئية، أي أنه سيأتي عندما أُصبِحُ كبيراً، بعد افتتاح المدرسة، ثم إغلاقها من جديد.

«حارس العجائب... إنه مُرتاح هناك لدرجة أنه يُريد البقاء لأطول فترة ممكنة، لكن هذا لن يدوم. سيتعين عليه أن يسلمني فُرَشَ التلوين ويترك مكانه لي. قال إنه سيتقاعد عندما يحين موسم الوِلادات.»

نظرتُ إليها بعينين واسعتين مُستفهِمتين.

«الفقمات» أضافت أمي «طيور البطريق، الدببة، الحيتان، ثعالب القطب، حيوانات المورس[1]... جميعها تُنجب صغارها في وقت واحد. خلال موسم الولادة، يكون أورانوس أشبه بحضانة حقيقية، أصوات صراخ، ومناغاة، ومحاولات مشي، والتقيؤ. لا يمكنك أن تتخيل! يُقال هناك بأنها بداية دورة حياة ونهاية أخرى. عندما يحين موسم الولادة، سوف يُسلم حارس العجائب فرشاته، لكي أحل محله.

«وهو، ماذا سيفعل؟»

«سيرتاح.»

«هل سيُصبح اسمُكِ حارسة العجائب؟»

«نعم يا كنزي.»

جعدتُ أنفي بلا اقتناع شديد.

«ألا يُعجبك هذا الاسم؟»

سرحت عيني في نباتات الحديقة، للحظةٍ من التفكير.

«لا أدري...»

«إذا خطر ببالك شيء أفضل، أخبرني دون تردد.»

---

(1) تسمى أيضاً، فظ، وهي ثدييات برمائية ضخمة، مزودة بنابين عاجيين طويلين.

فكرتُ على نحوٍ فعال وأنا أحفر أثلاماً صغيرة في التراب حتى تلوّنت أظافري بالأسود.

«أنت لست حارسة. بل رسامة، تخترعين السماء. أنت صانعة نجوم.»

كان ذلك هو اليوم الذي عَمّدتُ فيه أمي.

«إنه اسم في غاية الجمال، في غاية الرومنسية. شكراً يا آرثر.»

صانعة النجوم. بهذا الاسم وقّعتْ العشراتِ والعشرات من الرسائل التي ملأتْ غرفتي بعد رحيلها.

في نهاية ذلك الصيف، بدأت أمي تكلّمني عن السماء. طلبتْ من أبي شراء كتابين أو ثلاثة عن هذا الموضوع. وبدأنا، نحن الثلاثة، نجتمع كل مساء، قرب الخيمة في الأعلى، فيقرأ لنا أبي لنا أسماء النجوم والأبراج، مشيراً إليها بإصبعه. لكن ما كان يذهلنا أكثر، أنا وأمي، هو التفاصيل الطريفة التي كانت تجدها على هاتفها:

«على كوكب الزهرة، تهطل الأمطار بشكل شبه مستمر، لكن المطر لا يلامس الأرض أبداً لأنه يتبخر قبل وصوله إليها.»

«على كوكب عطارد، قد يصل الفرق في درجات الحرارة بين النهار والليل، إلى 600 درجة مئوية. هل تتخيل؟ يحتاج الأمر إلى لحاف سميك جداً للنوم هناك!»

«يحتضن كوكب المريخ أعلى جبل في كل النظام الشمسي: بركان أوليمبوس مونز. يصل ارتفاعه إلى ستة وعشرين كيلومتراً، أي ثلاثة أضعاف جبل إيفرست!»

«السماء على كوكب المريخ، حمراء وليست زرقاء.»

صدمتني هذه المعلومة، فقد كنت أعتبر اللون الأزرق أجمل لون في الكون. وأخيراً: «عند النظر إلى مجرَّتنا، درب التبانة، من الخارج، تبدو كأنها عَجَلة دراجة ضبابية.»

أضحكتَنْني هذه المعلومة.

قبل أيام قليلة من افتتاح المدارس، أصبح لدى أمي هوسٌ شديد. دفعت أبي لشراء تلسكوب، وسعت جاهدةً كل ليلة، للعثور على كوكب أورانوس في السماء، باتباع تعليماتٍ وجدَتْها في كتبه.

«إنه يقع في مجموعة برج الحمل. سيبقى هناك حتى مايو 2024، ثم سينتقل إلى مجموعة برج الثور.»

للعثور على أورانوس، كان يجب العثور على المريخ. تلك هي القاعدة. لكنها مسألة طويلة ومملة، أمضت فيها أمي ساعات، وهي تبحث باستبسال. عندما تمكنت من تحديد موقع الكوكب، كان حماسي قد تراجع إلى حد كبير. بدأت أمص إبهامي، وأحلم بشيء آخر، وأحياناً كنت أغفو بين ذراعي أبي.

«لقد وجدتُه،» كانت أمي تقول.

عندئذٍ، يحملني أبي ويضعني أمام العدسة. كان عليّ أن أكون حذراً حتى لا أحرك الجهاز، وإلا ستستغرق أمي دقائق طويلة أخرى لكي تعثر من جديد على أورانوس.

«أهذا هو؟»

شعرتُ بالخيبة أول مرة أكتشف فيها أورانوس. إنه نقطة مائلة إلى الزرقة في السماء السوداء، محاط بضوء خافت منتشر، مائل إلى البياض. وأنا الذي كنت أتوقع أن أشاهد البحر، وحدود المسطحات الجليدية، والأقمار السبعة والعشرين...

«إنه لا شيء»، أعلنتُ.

لم يكن لدينا معدات عالية الدقة...

«ولكنك على الأقل، عندما أصل إلى هناك، تستطيع أن تطلب من أبيك أن ينصب التلسكوب، لكي تشاهد النقطة الزرقاء في السماء وتعرف بأنني هناك. سيكون الأمر كما لو أنني أرسل لك قبلة في الهواء وأقول لك قبل أن تنام بأنني أحبك بحجم الكون.»

هززتُ كتفي بتجهُّم. لم تبدُ لي فكرةُ التحديق إلى نقطة ضبابية، في غياب أمي، أمراً ممتعاً. لم أكن أعرف بعد بأنني سأتعلق إلى حد الهوس بذلك التلسكوب اللعين، وأتلف عينيّ وأنا أحدق من خلاله، وقد أثقل الحزن قلبي، وذوت بشرتي لأن أمي لم تعد تمسح عليها. لم أكن أعرف بأن البحث عن تلك النقطة الزرقاء سيصبح مهمتي اليومية التي أقوم بها بحنق شديد، بأنه سيصبح انتظاري اليومي الذي لا ينتهي، وسيصبح الهواء الذي أتنفسه.

عرفت أمي ذلك؛ لهذا السبب أصرت أن تقدم لي تلك النقطة. نقطة زرقاء صغيرة أتعلق بها في الكون، أُرسِل إليها أمنياتي، أروي لها أحلامي، تفاصيل أيامي، أبوح بدموعي، بحسرتي، بكلماتي النابية، وانتقاداتي. نقطة زرقاء صغيرة أصرخ قائلاً لها بأنّ الأمر طال أكثر مما يجب، بأنني لا أمانع أن تكون السماء سوداء وأن تختفي الطيور، وأن تمّحي لوحةُ الكون، ما دامت أمي بجانبي. نقطة زرقاء صغيرة تُردِّد صدى عبارة أمي «أحبكَ بحجم الكون»، لكن بدون صوتِها، وعطرها الزهري الذي يفوح من عنقها، وشعور السكينة المطلقة، الذي كان يجتاحني عندما تداعب شعري.

لقد استبسلت أمي إذن لكي تريني أورانوس. كانت تقول: «لا بأس إذا بكيتَ وأنت تنظر إلى أورانوس عبر التلسكوب. على العكس، إذا بكيتَ ستساعد على نمو شجرة الموسيقى بشكل أقوى. الدموع تقوي الجذور. يبدو أن الألحان القادمة ستكون أكثر حزناً ونقاءً.»

كانت أمي تقول هذا بين شهقتين متقطِّعتين. كانت تلهث بشدة وتجد صعوبة في الكلام.. لكن كلماتها لم تفقد سحرها. بل على العكس. كلما اقتربت من الظلام، أصبحت مضيئة أكثر.

# 15

## الحاضر

بدأ مفعول إبرة التخدير، ولم تعد أنيتا متوترة. أستطيع رؤية ذلك من وضعيتها في السرير، وقد استلقت في سريرها باسترخاء. تنفست الصعداء واستراح وجهها. كانت على وشك أن تغفو، لكنها تكافح لإبقاء عينيها مفتوحتين.

«لا أريد أن يفوتني الحدث،» قالت على سبيل التبرير.

«أؤكد لكِ بأنه لن يفوتك. يبدو لي أنه سيكون لكِ دور فاعل في مساره.»

ابتسمت، وهزت رأسها.

«أنت تفهم ما أعنيه...»

«استريحي.»

«لا أريد أن تفوتني دقيقة واحدة من هذا. إنها تتقدم. مع كل دقيقة تمر، ومع كل انقباضة، تتقدم إلى الأمام قليلاً، تشق لنفسها طريقاً، تكافح لتخرج إلى النور، نحو الحياة. لا أستطيع أن أنام بينما هي تفعل كل هذا.»

بالكاد أستطيع كبت دفقة من الحنان. انحنيت فوقها، وقبلت جبينها. أغمضتْ عينيها.

«من حقكِ أن تنامي للحظات، أن تستعيدي قواكِ. أنتِ من يتعين عليك إرشادها بعد ذلك.»

أنيتا عنيدة. كنت أعرف، قبل أن أقول هذا، بأنني لن أتمكن من إقناعها. أحبها لهذا السبب أيضاً. لمليار من الأسباب، من ضمنها العناد. وضعت يدي على بطنها، القاسي والمشدود. الجلد نفسه الذي شعرتُ تحته بعشرات الركلات، دون إدراك تام بأن كائناً صغيراً يختبئ تحته. إنسان حقيقي، حياة من لحم ودم. حتى الليلة الماضية، كان الأمر فكرةً مُجردة. أشياء كثيرة تتداخل فيما بينها...

«هل ما زلنا مُتفقين على الاسم؟» سألتني أنيتا، وهي تتمعن بقلق في وجهي.

«بالتأكيد. لماذا؟ هل لديكِ شك في ذلك؟»

«أنا، لا.»

حدقت إليّ بنظرة غريبة. دواء التخدير، يجعل نظرتها تبدو مشوشة، يغشاها النعاس.

«كبوسين، اسم لطيف، ورقيق، أكدتُ لها. هذا ما قلته لكِ دوماً.»

أمام شغف أنيتا بالزهور، لم يكن أمامنا سوى أن نختار اسماً يُذكّر بالبتلات الرقيقة المحبوبة، ذات العطر الخفي، المُشبعة بأشعة الشمس، والمُرصّعة بالندى. كنتُ أحب اسم روز، ولا أحب إيريس[1]. كانت هي تكره فيوليت[2]، ولم تكن متأكدة من هورتنس[3]. اتفقنا على اسم كبوسين. وأصبحنا أساساً نهمس به في الظلام.

أغمضت أنيتا عينيها. ارتعش جفناها. على الشاشة، ارتفعت الأرقام، مُشيرةً إلى انقباضات تشتد وتزداد قوة شيئاً فشيئاً. لحسن الحظ أن التخدير فعلَ مفعوله، فبقي وجهها هادئاً.

---

(1) إيريس هو زهر السوسن.

(2) فيوليت، نوع من البنفسج.

(3) زهرة الأرطنسية، أو الكوبية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«نامي»، همستُ لها.

حاولت أن تقول شيئاً. انفتح فمها قليلاً، لكنها عدلت عن ذلك. كانت إحدى يدي فوق بطنها، والأخرى خلف رقبتها. كانت تشعر بأنها تستطيع أن تطلق لنفسها العنان.

سمعتُ صوتَ تنفسِها، يزداد ثقلاً وعمقاً. أشار الوقت على شاشة المراقبة إلى الساعة الواحدة واثنتين وعشرين دقيقة، ليلاً. شعرتُ بوخز النعاس في عينيّ، وازداد كتفاي ثقلاً، لكنني، في كل ثانية من هذه الليلة، كنت أعلم بأنني سأبقى مستيقظاً بكل ثبات، نشِطاً ومتأهباً على نحو غريب.

لأن ثمة شيئاً ما يستحوذ عليّ ويُبقيني صاحياً، شيئاً ما يطن في رأسي، ويصمُّ أفكاري. إنه الماضي: أمي. الذكريات. طفولتي، التي لطالما ظننتُ بأنها أصبحت ورائي، أراها تُعيد تشكيل نفسها أمام عيني الليلة، بينما أستعد لأصبح أباً. كما لو أن آرثر الصغير الذي وقف أمام تلسكوبه وراح يكيل الشتائم ضد الكون، لا زال هنا، كامناً بداخلي، متألماً، يحاول أن يكلِّمني، لكي يقول لي: *لا تفعل مثلها. لا تكذب. لا تختلق القصص. كن صريحًا وشفافًا مع كبّوسين. لا وجود للأشجار الموسيقية، ولا للقواقع القطبية. إنه شيء مؤلم أن تدرك بأن طفولتك بُنيت على التلفيق. هل تتذكر ذلك اليوم، أمام كعكة عيد الميلاد تلك؟ هل تتذكر ذلك الألم اللاذع، ذلك الإذلال، ذلك الغضب؟*

صدر شخير خفيف من فم أنيتا. وقفتُ قرب النافذة، مواجهاً السماء. نامت أنيتا بسلام، لكي تستجمع قواها قبيل المعركة الأخيرة. مثل أمي قبل ثلاثة وعشرين عاماً. ومثل أمي قبل رحيلها إلى أورانوس، حين أعلنت:

*«سوف أضطر إلى الدخول في حالة سبات، يا كنزي.»*

# 16

## اليوم الذي دخلت فيه أمي حالةَ سَبات

في صباح أحد أيام سبتمبر، استلمْنا في المنزل سريراً معدنياً. كان سريراً بعجلات ومزوداً بمِشْبَك من ناحية الرأس. سأل الرجلُ الواقف بالباب: «هل هذا لكِ؟ كلاريس ديشومان؟»

أومأت أمي برأسها وهي توقع على الورقة. كانت كاسّي حاضرة أيضاً. قامت هي والرجل بجَرّ السرير إلى غرفة المعيشة. من الآن وصاعداً، أصبح يتواجد معي ومع أمي، أحدٌ ما دوماً: إما جدّي، أو جدتي، أو كاسي، أو أبي في المساء. لم أسأل عن السبب. كنت أحب الصحبة، وبدا الأمر طبيعياً وعادياً بالنسبة لي.

«ما هذا؟»

كانت أمي جالسة في مقعد في الصالون، ومعها آلة الأوكسجين. فكّ الرجل سلكاً محشوراً بين لوحين من ألواح السرير، ووصله بمقبس كهربائي، وحمل جهازاً صغيراً للتحكم عن بُعد. ضغط على أزرار أدت إلى رفع أجزاء من السرير: من جهة الرأس، والوسط، والقدمين.

«هذا زر من أجل الركبتين. وهذا لرفع القدمين. أترين؟»

أومأت كاسّي. كانت أمي تنظر إلى مكان آخر، عبر النافذة، كما لو أن الأمر برمته يسبب لها ضجراً عميقاً. صدرت من منظومة التحكم بالسرير، جلبةٌ تشبه الجلبة المتقطّعة لإنسانٍ آلي. أخذتُ أدور حول

كاسّي والرجل، مُقلّداً حركات الروبوت المتشنجة. راقبتُ أمي لأرى إن كانت تبتسم، لكنها لم تكن معنا حقاً.

«سأذهب لإحضار المرتبة، وأعود حالاً»، قال الرجل.

عندما توارى، وقفتُ أمام أمي، مجبراً إياها على النظر إليّ، وسألتُها: «ما هذا؟»

«سرير خاص.»

«خاص لأجل ماذا؟»

«خاص لأجلي.»

لم يكن ذلك كافياً بالطبع. حاولت كاسّي صرف انتباهي.

«تعال وانظر، هل تريد تجربته يا آرتورو؟ اجلس وسآخذك جولة في الصالون!»

لكنني واصلت التحديق إلى أمي.

«انتظر حتى يغادر الرجل وسأشرح لك»، أعلنتْ ببساطة.

وفي المطبخ، شرحت لنا أمي، فيما راحت الخالة كاسّي تُعد شراب الشوكولا الساخن. كان ديسيبيل يأكل شريحة لحم من وجبة الأمس، وأمي تثبّت جهاز الأكسجين بإحدى يديها، وباليد الأخرى تُحيط بي، وأنا في حجرها.

من خلال نافذة المطبخ، كان باستطاعتي أن أرى تلّتي، والخيمة التي بدأت تتداعى، وعصاي الخشبية المغروسة في قمة التلة، وأولى الأوراق الخضراء لشجرةِ الموسيقا، تنبت من الأرض.

«إذن، ها هي المسألة. موسم الولادات على أورانوس، يقترب ببطء، وعليّ أن أستعد للمغادرة.

«متى؟»

«لا أدري. خلال أسابيع قليلة. لا أستطيع أن أكون أكثر دقة.»

توقفت لالتقاط أنفاسها. أطفأت الخالة كاسي الموقد، بينما لم أكن قد فهمت علاقة ذلك كله بسرير أمي الآلي، لكنها تطرقت إلى ذلك:

«أنا مستعدة. تدربتُ كثيراً على الرسم، وأصبحت مهاراتي جيدة. المشكلة الوحيدة الآن هي أنني سأضطر للعمل ليلاً ونهاراً على أورانوس.»

«ليلاً، لماذا؟»

«هل تعتقد أن السماء تأخذ استراحة في الليل؟ مستحيل! علينا أن نُظهر نجوماً، ونُخفي أخرى. علينا أن نضيف سحابة أو اثنتين لكي تمرّا أمام القمر. دعنا نتحدث عن القمر: علينا أن ننظم صعوده في السماء، ثم هبوطه، ثم علينا أن ننشط لتهيئة شروق الشمس، بأطياف ألوانه، وتدرجاتها. باختصار، إنها وظيفة متواصلة لا تتوقف لحظة واحدة. سيكون عليّ، طوال فترة وجودي هناك، أن أعمل ليلاً نهاراً، لذا...»

بدأت كاسي تصب الشوكولا الساخنة في الأكواب.

«لذا، عليّ أن أرتاح. بل وأكثر من ذلك. سأضطر إلى الدخول في سبات. مثل سبات الحيوانات في الشتاء. يجب أن أنام بعمق لكي أُنتج احتياطيات هائلة من الطاقة.»

«لماذا لا تنامين في سريرك العادي؟»

«بالضبط لأنه سرير عادي! هل رأيت هذا السرير؟ إنه متصل بمقبس كهربائي، وعبر الكابل، تتدفق طاقة نووية خارقة. أي أن ساعة نوم واحدة على هذا السرير النووي الخارق تعادل سنة كاملة من النوم!»

توقعتُ أن أرى كاسي تفتح عينيها، مثلي، على وسعهما، لكنها كانت تدير ظهرها لي، وتراقب الحديقة.

«سأضطر أن أرقد أكثر فأكثر في هذا السرير يا كنزي. تستطيع الاستلقاء بجانبي إذا شئت.

«وهل سأكتسب قوى خارقة؟»

«ممم... ربما.»

«قوى نووية خارقة؟»

لم تُجب أمي. اكتفت بطبع قبلة على شعري.

اعتباراً من ذلك اليوم، أمضت أمي، مثلما توقعتْ، معظم وقتها في سرير سباتها، النووي الخارق، وسط غرفة المعيشة. كانت تغفو أحياناً، ولكن ليس دائماً. في أغلب الأحيان كانت تستمع إلى الموسيقى وترسم، مسندةً دفتر رسمِها إلى ركبتيها. خيل لي بأنها ترسم أيضاً في الليل عندما ننام أنا وأبي في الطابق العلوي. كانت كومة الورق تكبر يوماً بعد يوم. كان أبي يخبئها في الصباح، لكنه ينسى أحياناً أن يفعل ذلك، فيتاح لي وقت لإلقاء نظرة خاطفة على بعض الرسومات بجانب كتابة بخط أمي، قبل أن يَختطف مني الورقة.

لا بد أن أمي كانت تنام خلال النهار عندما أكون في المدرسة. وحين أعود إلى المنزل، تبقى دوماً مستيقظة. كانت جدتي تُعدّ لي وجبتي الخفيفة، فأذهب إلى جانب أمي لكي أتناول طبقاً من الحبوب، أو ثمرة كمثرى مقطَّعة، أو لوحاً من الشوكولا، وأنا ملتصق بها، في سريرها النووي فائق القوة، فتكلِّمني عن حرب الغربان الشريرة على أورانوس، تلك اللحظة الحاسمة التي أرادت فيها الطيور السوداء الغاضبة، أن تتمرد على مخترِعِها، لأنه جعلها سوداء وليست صفراء أو حمراء أو خضراء مثل الكناري أو الكاردينال الأحمر أو الببغاء. كان الصراع طويلاً وشرساً. حاولت الطيور دخول القصر لفقء عيني حارس العجائب،

لكن السرطانات الغاضبة دافعت عن المبنى. عاد السلام عندما كشف حارسُ العجائب للغربان بأنها من أذكى الحيوانات في الكون، ومن أوسع الطيورِ حيلةً. كان ذلك الكشف أكثر فائدة بكثير من ريشٍ ملون. وُقِّعت الهدنة، ونُصِبَ بهذه المناسبة تمثالٌ في فناء القصر، يُظهِر رجلاً من رخام أسود، يمد يده إلى السماء، ويقف على طرف سبابته غراب من الجرانيت الأبيض، علامةً على المصالحة.

عندما تصبح أمي غير قادرة على الكلام من شدة الإنهاك، وتحتاج إلى مزيد من السبات، كانت تغفو، فأنصرفُ مثل جميعِ صِبية العالم، الصغار، إلى اللعب بالسيارات، وتجميع مكعبات الليغو، والخربشة على الأوراق. لكنني كنت أفعل ذلك على طرف سرير أمي، من جهة القدمين.

كان أبي يقول عندما يعود:

«دع أمك ترتاح يا آرثر. اذهب للعب في الطابق العلوي.»

وكأن سِحراً ما، يسري مفعوله آنذاك ليجعل أمي تفتح إحدى عينيها، كأنها لم تنم قط، وتقول من خلال تنهيدة:

«لا، اتركه بجانبي.»

وإذا كانت هناك دمعة تسيل على خد أمي في تلك اللحظة، كانت تطلب مني أن ألتقطها وأضعها عند ساق شجرة الموسيقى. يبدو أنها كانت تبكي لهذا السبب: لصنع موسيقى أكثر جمالاً ونقاءً وحزناً.

# 17

## الحاضر

جفلتُ عند سماع بضع طرقات على الباب. استدرتُ. كانت هناك امرأة شابة بمئزر أبيض، وتحت ذراعها حافظة أوراق، تمدّ رأسها عبر الباب بحياء.

«مساء الخير، جئتُ لكي أرى إلى أين وصلت الأمور.»

استقامت أنيتا بصعوبة في السرير. كانت عيناها منتفختين وهيئتُها مشوشة.

«يبدو أنني غفوت، أليس كذلك؟»

أومأتُ برأسي وأنا أبتسم لها. كانت القابلة تخاطبها وهي تقف أمام جهاز المراقبة:

«هل ما زال كل شيء على ما يرام؟»

«نعم.»

كانت الساعة على الشاشة تشير إلى الثانية ودقيقتين، صباحاً، ويبدو أن الانقباضات تصبح متقاربة أكثر فأكثر. ركزت الشابة السمراء ذات البشرة الشاحبة، على أرقام معينة، دوَّنتْها في دفتر ملاحظاتها، ثم ارتدت قفازاتها.

«سوف أفحص عنق الرحم.»

«سأذهب في جولة قصيرة ثم أعود سريعاً...»

كنت أفضّل أن أمنح أنيتا فسحة من الخصوصية أثناء الفحص. ثم إنني أحتاج إلى تحريك ساقي في الردهة، لا توجد نوافذ، ولا سماء لأتأملها، ولا نجوم. لا شيء سوى اللون الأبيض. توجهت نحو آلة القهوة، فجلست على أحد الكراسي المقابلة لها. وأخرجت هاتفي من جيبي. كان أبي قد أرسل لي رسالة نصية قصيرة عند الساعة الثانية عشرة والنصف، بعد منتصف الليل: «*هل الأمور بخير؟*»

لبثتُ عاجزاً عن الرد. لا أعرف ما الذي أصابني، لكن شعوراً بالخوف والضعف قد انتابني مع شيء من الغثيان. أعتقد أن أبي كان ينتظر في ممر مثل هذا، يوم رحيل أمي، وأنه حاول أن يكبت حزنه، ويبتلع ألمه، أمام ماكينة قهوة مماثلة، بينما كنتُ أتسلى برمي الحصى في بحيرة الطاووس، على بُعد مئات الكيلومترات من هنا، بعيداً آلاف السنين الضوئية عما كان يحدث بالفعل. كانت كاسي تصرخ:

«*ارمِها أبعد يا آرتورو! أبعد!*».

كانت قد وَعدَتْ أمي أن تعتني بي مهما كانت العواقب كأنني ابنها كان ذلك جزءاً من الوعد: أن تأخذني إلى بحيرة الطاووس بينما كانت أمي تلفظ أنفاسها الأخيرة في المستشفى. كان ذلك أهم من إمساك يد أختها لآخر مرة أو تقبيل جبينها، بل أهم بألف مرة... أن تُضحك ابنها، أن تُعلّمه رمي الحجارة، أن تُقنعه بأن الحياة ليست على وشك الانهيار، بل بأنها زرقاء كزرقة ماء بحيرة. لا بد أن أمي كانت فخورة بأختها. أوفت كاسي بوعدها. ضحكتُ، وغنيتُ، واصطدتُ الشراغيف، وأخفتُ العصافير برفقة ديسيبيل، بينما كانت أمي تموت. بدوني.

نهضتُ فجأة. لم أعد أستطيع التنفس، فقد سدَّتْ غصةٌ حلقي وشعرتُ بالاختناق. تجمعت دموعي في زوايا عيني. اتجهتُ نحو الدرج الخلفي، فدفعتُ الباب بعنف، ونزلتُ السلالم مسرعاً، أنشُد بعض الهواء. تقدمتُ بضع خطوات في مرآب السيارات، وأنا أكتم نشيجي بباطن يدي، وأعضّ على طرفها. كنت بحاجة أن أضمّ آرثر الصغير بين ذراعي. وبعد ذلك، فقط بعد ذلك، يمكنني الانضمام إلى زوجتي، ومرافقتها في محاولاتها الأخيرة قبل ولادة ابنتنا.

# 18

## اليوم الذي رحلت فيه أمي إلى أورانوس، وأنا إلى بحيرة الطاووس

في آخر يوم رأيت فيه أمي، كان هناك عنصر وحيد استرعى انتباهي: الحقيبتان. الحقيبة التي طلب مني أبي أن أحزمها للذهاب إلى بحيرة الطاووس مع الخالة كاسي لبضعة أيام، والأخرى التي فتحتْها أمي على سرير غرفتها.

كان قد مضى عليها بعض الوقت وهي شبه متوقفة عن الكلام. كانت تدخر قواها من أجل الرحلة الكبرى، المهمة التي كلفت بها، وأشكال السماء التي سيتعين عليها أن ترسمها والتي وعدت بأنها ستكون أجمل من أشكال سماء حارس العجائب. كل صباح كنت أُجهز لها لوائح بما أريد رؤيته: أقواس قزح، غيوم وردية، مطر جليدي في الصيف، كسوف شمس... كان ينبغي، كما أفترض، أن تدفعني رؤيتُها صامتةً، إلى الاستغراب، لكن الأمر لم يبدُ مهماً جداً بالنسبة لي. لقد طورنا أنا وأمي منذ وقت طويل، لغةً تستغني عن الكلمات، حين يلوذ أحدنا في حضن الآخر، متعقِّباً رائحته، وتتجه عيناي نحو عينيها، وتتطابق أنفاسنا. ذلك كان الرابط بيني وبين أمي. رابطٌ حيوانيٌّ، متوارَث من الأسلاف، متجذر في لحمنا.

كان أبي إذن هو من أعلن لي ذات صباح:

«ستذهب مع الخالة كاسي إلى بحيرة الطاووس. ستبقيان هناك لبضعة أيام، ومعكما ديسيبيل.»

لم أعلم بأن الوضع في الليل كان قد اضطرب، وأن أمي عانت من صعوبة كبيرة في التنفس. لم تغمض لأبي عين ولو لحظة. شحب لون بشرته. كان كيانه ينهار من الداخل. ومع ذلك، حملني إلى غرفتي، في الطابق، وأخرج حقيبة سفر من خزانتي، وقال:

«أنت فتى كبير الآن، هل ستعرف كيف تحزم حقيبتك؟»

ما زلتُ أتذكر الحقيبة الحمراء، التي بدت مثل بقعة دم على السجادة ذات اللون الفاتح في غرفتي. حدث أمرٌ غير عادي. كان أبي بين الحين والآخر يُمرر رأسه من فتحة الباب الموارب.

«هل تمكنتَ من ذلك يا بني؟»

في غرفته، التي كانت في السابق غرفة مشتركة له ولأمي، قبل مجيء السرير النووي الخارق، وقبل السُّبات، كانت هناك حقيبة سفر أخرى فوق ملاءات سريرهما. حقيبة للكبار، مربَّعة الشكل، سوداء، مفتوحة على مصراعيها، فاغرة فمها كأنها وحش مُخيف. كانت أمي مُستلقية لآخر مرة على سريرهما، وقد حملها إلى هناك. كانت تستنشق رائحة الملاءات كما لو أنها تريد أن تتشبَّع بعطرها. ربتت على الوسادة تدعوني لكي أنضم إليها. كل شيء تغيَّرَ في أمي مؤخراً: شحبت بشرتها أكثر من أي وقت مضى، وبات شعرها خشناً وجافاً، وذراعاها نحيلتين، وكتفاها بارزين. شيء واحد فقط بقي على حاله: نظرَتُها. بقيت عيناها لامعتين إلى درجة أنني لم ألاحظ إلى أي حدٍ كانت تجد صعوبة في النطق بالكلمات:

«ما الذي كنتَ سترتديه لو اضطررتَ للذهاب إلى أورانوس يا كنزي؟»

راقبتُ أبي وهو يُكدس بعض البيجامات القطنية، وسترة صوفية، وبنطال جينز مطاطي.

«ما كنتُ لأرتدي هذه الثياب.»

أخذتُ أُخرج الثياب من الحقيبة. أراد أبي الاعتراض، لكن أمي أوقفته بإشارة من يدها. وقفتُ على أطراف أصابعي، بدأتُ أنزل الثياب المعلَّقة على بعض الشماعات، وأُفرغ بعض الجوارير لأفرش محتوياتها، ثم أُهملها. بحرص واجتهاد، بدأتُ أختار ما بدا لي الأنسب لو كنتُ ذاهباً في مهمة إلى أورانوس: معطف واقٍ بقلنسوة من فراء صناعي، وسترة سميكة كانت أمي ترتديها في الشتاء، وجوارب صوفية، وقبعة مبطنة بالفراء، ووشاح، وقفازات، وبنطال داخلي ضيق لكي أرتديه تحت البنطال... تركني أبي أتصرف دون أن يتدخل. وافقت أمي على كل شيء بإيماءة من ذقنها.

لم أدرك ذلك في حينه، لكنه كان التفصيل الذي سيبقى من ذلك اليوم الأخير مع أمي: الحقيبتان اللتان أغلقناهما ووضعناهما في الممر، ثم قام أبي بإنزالهما. حقيبتي الحمراء الصغيرة التي ضمت ملابس سباحة وبيجامة، لا غير. وحقيبة أمي بثيابها الخاصة بالتزلج.

كان يوماً جميلاً من أواخر سبتمبر. لم يكن يوماً خريفياً، بل يوماً جميلاً ودافئاً من أواخر الصيف. أخبرني أبي بأن الخالة كاسي ستأتي لتأخذني قبل الظهر، وأن عليّ أن أكون عاقلاً في السيارة. أصرت أمي أن تذهب للجلوس على تلتي، بانتظار وصولها.

«تريدين الجلوس على التلة، حقًا؟»

بدا أبي منزعجاً. تسلق التلة ممسكاً بأمي الضعيفة بين ذراعيه، دون أن يستعجلها، ودون أن يتعثر...

أرادت أمي أن تكون هناك معي. مع أبي. أن تترك دموعها تسقط على الأرض، لكي تمد شجرة الموسيقى بالغذاء، لكي تلمس السعادة لآخر مرة قبل الرحيل. هذا هو معنى أن تكون جزءاً من عائلة. أن ننتظر نحن الثلاثة على تلة، وكل منا يمسك بقوة بيد الآخر.

«حين تعودين» سألتُ أمي، «هل ستتمكن شجرةُ الموسيقى من العزف؟»

«ربما.»

كنا نجلس تحت الخيمة المترنحة. لن يطول بها الأمر حتى تنهار. مثلما انهار كل شيء بعد رحيل أمي: أبي، والحديقة، وابتسامة جدتي...

داعبت أمي شعري، قبلت أصابعي، ودغدغت رقبتي. عندما سمعنا صوت سيارة الخالة كاسي تقترب، نهضتُ قافزاً وركضتُ إلى أسفل التلة. كان ديسيبيل ينبح، وأنا أصرخ وأتقافز. استغرق أبي دهراً لكي يُنزل أمي ويُجلسها في مقعد بالحديقة، مع جهازها الذي يمدها بالأوكسجين. كانت تحمل بين يديها كتاب حياتي، الذي ناولتني إياه. كانت إحدى كلماتها الأخيرة:

«ستحافظ عليه، أليس كذلك؟» ثم قالت لي: «تعالَ».

دامت قبلةُ أمي دهراً. أخذت تشمّ رائحة بشرتي، وشعري، وتشد على ذراعيّ، وظهري، حتى آلمتني. رحت أتململ نافد الصبر، متلهّفاً للبدء بإلقاء العِصيّ أمام ديسيبيل، لكي يركض ويلتقطها في الحديقة.

في ذلك الصباح، لم أنتبه لتعابير خالتي كاسي، المروعة، ولا لعينيها المحتقنتين، ولا لنشيج الأختين. كانتا متكتِّمتين، لائقتين، ومحافظتين على كبريائهما حتى النهاية. أردتُ أن أضع حقيبتي في صندوق السيارة

بنفسي، وكانت قبلتي لأبي هاربةً إلى درجة أنها جرت في الفراغ. لوّحتُ لأمي من نافذة السيارة المفتوحة، صارخاً:

«إلى يوم الأحد!»

يوم الأحد. لم أكن أعرف ما هو يوم الأحد: لا بأنه آخر يوم في الأسبوع، يوم الصلاة للرب، ولا بأنه يصادف غداً بالفعل، وبأن كاسي لن تعيدني قبل يوم الأربعاء. كنت أعرف فقط بأنه يوم يتواجد فيه الأطفال مع آبائهم، بأنه يوم ملتقىً للعائلة، أن نكون أنا وأبي وأمي في المنزل، أعيننا ملتصقة، ورائحة قهوة تملأ المطبخ، وأحذية بيتية دافئة، وصوت الراديو متواصل حتى المساء.

هكذا صرختُ إذن، ثابة وداع لأمي: «إلى يوم الأحد!»، وبقيت هذه العبارة تطاردني طوال ما تبقّى من طفولتي. لوّحت أمي بيدها، ثم اختفت واختفى معها أبي والمنزل. كان ذهني منصباً بالكامل على الكوخ بجانب بحيرة الطاووس، وعلى القاربين.

بعد ذلك، عندما فرض الواقعُ المروِّعُ نفسَه علي، حاولت بكل كياني أن أنسى ذكرى تلك الأيام الخمسة في بحيرة الطاووس. تلك العطلة المرتجلة التي لم تستدعِ مني أي استغراب. ذلك الوقت الأزرق، المستقطع، الذي كانت فيه أميَ تموت وحيدة بدوني.

بدافع الشعور بالذنب. أو بدافع الشعور بالعار، حاولت أن أنسى صيحات فرحي وأنا أركض خلف ديسيبيل، وقدماي في الماء البارد، وكؤوس شراب الرمان على الشرفة، وتشجيعي للخالة كاسي وهي تجدف بصعوبة، ولعقات ديسيبيل التي كانت تجعلني أنفجر بالضحك، والحصى التي كنت أحرص على التقاطها من الشاطئ، ثم ألقي بها دون مبالاة مثل العديد من وعود السعادة القادمة. بدأتُ أقمع هذه الصور، وأكرهها:

إحساسي بيد الخالة كاسي في يدي أثناء الليل، والمطر الخفيف الذي هطل صباح الاثنين عندما أخبرتني الخالة كاسي بأن أمي قد غادرت إلى أورانوس عند الفجر. اكتشفتْ ذلك عندما استيقظت، عبر بريد صوتي. ذهبت في نزهة حول البحيرة بمفردها، طالبةً مني أن أراقب ديسيبيل، وألّا أخرج من الكوخ. مكثت طويلاً أراقبها من ظهْرِها وهي تبتعد. بدا لي ظهرُها حزيناً. فيما رحت أبحث في السماء عن أثر الصاروخ. ميزتُ أربعة مسارات مختلفة، ولم أعرف أيٍّ منها يتجه إلى أورانوس.

حين عدنا في وقت متأخر من يوم الأربعاء، كانت هناك رسالة تنتظرني في البيت. رسالة سلمها لي أبي المرتبك، الذي لم يكن يرتدي قميص المربّعات، بل بدلة سوداء غريبة، كما لو أنه عائد من حفل زفاف. رسالة من أمي مطوية في ظرف لُوِّن بأكمله بالأزرق مع غيوم وردية.

كانت الحروف المكتوبة بقلم فضي، على طريقة الزركشة الرمادية نفسها، الموجودة على قوقعة الحلزون القطبي. لن تكون هذه سوى الرسالة الأولى في سلسلة طويلة من الرسائل. جميعها مطبَّقة يدوياً ومزينة برسومات. كان جدي هو من قرأها لي. جدي، ذو القامة الصغيرة للغاية، والظهر المحني للغاية، واللون الرمادي للغاية، ببدلةٍ فحمية مفعمة بالكآبة. كنت متأكداً من أن هطول المطر ذلك الصباح، حدث، مرةً أخرى، بسببه. كان جدي هو الوحيد، في ذلك اليوم، القادر على قراءة كلمات أمي لي. بينما غادر الثلاثة الآخرون الغرفة، تولى هو هذا الدور بشجاعة وألم.

*يا كنزي الغالي،*

*يا نجمة لياليّ،*

*إنه اليوم الموعود. أرسلَ لي حارسَ العجائب غُرابًا أسرع من الصوت ليخبرني بأنه يرفع الراية البيضاء. لقد قهرتْهُ هشاشةُ العظام. أنا متحمسة جدًا لأنني سأستلم فرشاة الكون العظيمة! هذا يجعل قلبي ينبض بقوة! تذكّرْ، كنتَ تقول بأن نبضات القلب السريعة، تشبه صوت حصانٍ يعدو. اليوم، حصاني يركض بسرعة كبيرة، إنه ينطلق بأقصى سرعة!*

*اطلب من أبيك أن يضبط لك التلسكوب الليلة، وسأحاول أن ألوح لكم من أعلى برج في القصر. إذا ركزتَ جيداً، فربما تتمكن من رؤيتي!*

*أحبكَ حباً لا حد له.*

*أمك.*

*صانعة النجوم.*

# 19

## رسائل أمي

طوال سنتين بالكامل، بقيت أيامي تتمحور حول صندوق بريد أمي ورسائلها. كنت أرقب وصول ساعي البريد، وأمام المطبوعات والبريد الرسمي، أقف خائباً أبتلع دموعي. لم تكن رسائل أمي تصل عبر ساعي البريد أبداً. لكنها مع ذلك كانت تتواجد دوماً في صندوق البريد ذي الطلاء الأسود المقشَّر. كيف كانت أمي تفعل ذلك؟ لا شك أنها كانت تستخدم الرياح، أو الشهب لتحميلها رسائلها التي توضع أثناء الليل في الصندوق. كانت المغلفات دوماً ملونة، وزاهية ومبهجة، بلوحاتها ورسومها وقصاصاتها وملصَقاتها.

كانت أمي تجتهد في الكتابة لي. أول رسالة استلمناها أنا وأبي وصلت في ليلة اكتمال القمر. كانت مختومةً بختم دائري صغير أحمر كُتب بداخله: مكتب *بريد أورانوس*. إلى جانب الختم، رسمت أمي قصراً بأبراج كثيرة من الصواعد، يعلو أحدُها فوق بقية الأبراج، كانت أمي تلوّح لنا من فوقه كل مساء. لم أكن متأكداً من أنني رأيتها حتى عندما حدقتُ بكل قواي. ولكن بدا لي أنني رأيت أورانوس يومض مرة أو مرتين. في ذلك اليوم، تسربت من المغلف ذرات من رمل أخضر. لون أخضر كثيف، بلون الكناري. كأنه طباشير مطحونة. جاء في الرسالة:

كنزي الغالي،

نجمة لياليّ،

لقد استرحتُ كثيراً مؤخراً في فراشي النووي الفائق حتى فاضت طاقتي. إنني أرسم ليلًا ونهاراً بلا هوادة.

هل أعجبتك الأشكال التي أرسمها للسماء؟

كوكب أورانوس رائع، أكثر مما تخيلت. البرد معتدل، والضباب الذي يرتفع في المساء ولا يتلاشى إلا في الصباح، مضمَّخ بالعطر، بطعم يتغير كل يوم. إذا فتحت فمك لالتقاط القطرات المكثَّفة، يمكنك أن تشعر بطعم الموز، أو غزل البنات، أو خوخ المادلين، أو الإجاص. في ذلك اليوم، كان الطعم يشبه الليمون الحامض! وهو ما لم أتوقعه. يمكنك أن تتخيل تكشيرة الصدمة على وجهي!

أما بخصوص الحياة في القصر... فأنا لا أجد الكلمات...إنها عظيمة! هناك ألف برج وألف غرفة! أستطيع تبديل غرفتي كل ليلة! غرفتي المفضلة تقع في أعلى برج، المكان الذي أُلوِّح لكم منه كل يوم. السرير على شكل نجمة، تظلله ستارة من قماش الموسلين الأبيض، ووسائده ناعمة مثل ملمس حلوى الخطمي. أستطيع عند الاستلقاء فيه أن أتأمل السماء وأقمارها، لأن سقف الغرفة مصنوع من الجليد الشفاف.

لا أشعر بالملل. لديّ مَن يساعدني في العمل: قواقم ذات فراء أبيض ناصع. تخلط المساحيق، وتنظف الفُرَش، وتُحضِر لي الطعام والشراب. إنها تأتي وتلتَفُّ حول رقبتي عندما تريد أخذ قسط من النوم.

لديّ الكثير والكثير لأخبرك به، لكنني سأترك مفاجآت أخرى للرسائل التالية! ستجد في المغلَّف رمالاً قطبية. إنها نادرة للغاية. يتعين الحفر في أماكن مُحددة، تحت الجليد، حيث تنمو زهور المسطحات الجليدية اتي

*تسمى إيدلويس (إنها زهور بيضاء فضية، العثور عليها صعب جداً). حارس العجائب هو من عثر لي، لأجلك، على واحدة منها. لقد توقف عن العمل، لكنه قرر أن يمضي فترة تقاعده على كوكب أورانوس، معي في القصر. في المساء نلعب البيلوت بورق الشدّة، لكنه فاشل جداً في اللعب، ويخسر دائماً..*

*اطلب من أبيك أن يجمع الرمل في قارورة ويضعه على طاولة سريرك. لقد وضعتُ قبلة على كل حبة، بحيث يكون داخل القارورة مئات الآلاف من قبلاتي.*

*أحبك بلا حد.*

*أمك.*

*صانعة النجوم.*

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت تلك واحدة من الرسائل القليلة التي نجت من حريقي المدمِّر. والسبب وجيه هو أنها كانت لا تزال مطوية أربع طيات وموضوعة تحت قارورة الرمل القطبي، في غرفة طفولتي، التي حافظ عليها أبي كما هي، رغم مرور السنين، ورغم انتقال ماري للعيش معه. قدَّرتُ بأنها لا تزال هناك. لم يجرؤ أبي على المساس بشيء من عالمي ذاك. كان الأمر كما لو أن جزءاً مني بقي عالقاً هناك، في مكان ما من زمن الطفولة، عالقاً في ذلك الجهل الذي حاولوا إبقائي فيه، بدلاً من تركي أواجه الحقيقة، وأكبُر.

في الخامس والعشرين من ديسمبر من ذلك العام، كان هناك مغلّف مليء بـِ رُقاقاتٍ ذات بريق ذهبي.

*يا كنزي الغالي،*

*يا نجمة ليالي،*

*هبط نجم على كوكب أورانوس صباح عيد الميلاد هذا، وعطسَ، فتطايرَ غبارُ النجوم في كل مكان من حوله. إنه غبار ذهبي، ثمين للغاية. اعتنِ به.*

*بعد ظهر اليوم، سيتولى حارس العجائب الطهي لأجل المأدبة. سلطة بقدونس قطبي، أضيف إليها الكراث وسباغيتي البحر. لا أحد يضاهيه في طهي الخضراوات المحلية. سوف تكون التحلية كريمة جوز الهند المخفوقة. نحصل عليها هنا عن طريق جمع الرغوة من بحر أورانوس وخفقها حتى تأخذ قواماً كثيفاً.*

*ألم أخبرك باسمه؟ إنه يدعى هوبير.*

*أتمنى أن يسير عشاء عيد الميلاد مع الجد والجدة والخالة كاسي على ما يُرام.*

*أقبلكم جميعاً، أفتقدكم.*

*أمك.*

*صانعة النجوم.*

كانت هناك رسائل مع مطلع كل عام دراسي جديد، وكل عيد ميلاد، وكل مناسبة مهمة. هذا ما انشغلتْ به أمي في الأشهر القليلة الماضية بينما كان النوم يلفّ المنزل: كتابة حوالى مئة رسالة، تكفي لمواكبتي في اجتياز سنين طفولتي وبراءتي.

تلك كانت شهوراً صعبة. شهور من فراغ في صدري، ودموع في حلقي، ونداء «أمي» الذي تمنيتُ أن أصرخ به، لكنني كنتُ أبتلعه بألم. لا بد أن أمي كانت تعلم بذلك. بالضرورة. لا بد أنها لاحظت كوابيسي الليلية، ونوبات غضبي المروعة، لاحظت شتائمي ضد الكون، ضد أبي، وجدي، وجدتي، لا بد أنها عرفت بأنني أصبحتُ أتبولّ لا إرادياً.

كانت رسائلها تصل دائماً في أنسب اللحظات. عندما يصبح الحزن والشوق لا يُطاقان. عندما أستيقظ باكياً في الليل وأنضم إلى أبي في فراشه. كان يقول لي:

«ضع الغطاء عليك، سأُحضر لك كوب حليب دافئ».

أحياناً كان يعود من المطبخ بدون الحليب، كأنه نسي الأمر تماماً، ولكن شيئاً ما كان يلمع في عينيه.

«يجدر بنا الذهاب للتحقق من صندوق البريد»، كان يقول.

عندئذٍ يرتدي كل منا سترة وحذاءً ونندفع عبر الباب الأمامي. كنت أستنشق رطوبة الهواء في الممر الحصوي الصغير المؤدي إلى صندوق البريد. وكان البخار يتصاعد من فم أبي. وعلى نحو لا شعوري، كنا ننظر نحو السماء، بحثاً عن أورانوس. كان الأمر أشبه برحلة حج، بقلبَيْن مثقَلَيْن. والأمل الذي يجعل حصاناً يعدو في صدري وأنا أمسك يد أبي الكبيرة الخشنة، في يدي.

قرأ لي الرسالة على الدرج خارج البيت، في ضوء المصباح الصغير الذي كان يومض. لم يكن لديّ الصبر الكافي لخلع حذائي، وانتظار عودتنا إلى غرفة النوم. ثم إنني، عند قراءة رسائل أمي في الخارج، تحت القبة المرصعة بالنجوم، كان باستطاعتي أن أقنع نفسي بأنها تسمعنا وتراقبنا، وبأنها ترسل لنا القبلات.

بحلول الصيف التالي، وصل طولُ شجرة الموسيقى إلى طول قامتي. انتشرت أوراقها. لم تكن أبداً تلك اللفائف المصفرة التي أخبرتني عنها أمي. بل كانت مجرد أوراق خضراء بسيطة، ذات عروق. أوراق عادية تماماً. تلك كانت أولى بذور الشك في ذهني.

# 20

## اليوم الذي ماتت فيه أمي بالفعل

بمناسبة بلوغي السابعة من عمري، دعا أبي إلى بيتنا، كلاً من الجد والجدة وكاسّي، إضافةً إلى أبويه بالذات، جدي وجدتي لأبي، اللذين جاءا من سانت نيكولا دي ـ فيروس.

كنا في بداية شهر أبريل، حيث بدأت تتشكل البراعم الأولى على الأشجار. ديسيبيل مات لتوّه، بسبب ورم في الدماغ. كانت الخالة كاسي قد وصلت صباحاً، بمفردها.

«إنه في السماء. لن يعود.»

حاولتْ بكثير من المشقة، أن تشرح لي بأنهم أخذوا ديسيبيل إلى الطبيب البيطري وضعوه داخل صندوق، مع ألعابه، وطوقه، ثم دُفن الصندوق في حديقة الجد والجدة، تحت شجرة الكرز.

كانت الخالة كاسي قد قصت شعرها، وباتت تعيش الآن مع شاب يدعى سيمون، يأتي أحياناً لتناول الغداء معها في المنزل، ولكن ليس دائماً. كانت تعمل في الوشم، وهي وشّامة حقيقية تمارس عملها في صالون يشبه صالون الحلاقة، ولكن «الحلاقين» هناك كانوا جميعاً حليقي الرأس، ولديهم حلقات برسينغ في أنوفهم.

«ألن يعود أبداً؟»

«مَن تقصد؟»

«ديسيبيل.»

«لا.»

كان أبي قد أوصى على قالب كاتو من صنع أخصائية في تصميم قوالب الحلوى: كاتو بكريمة الموسلين مع قطع من الفاكهة الحمراء، ومغطى بطبقة من الكراميل على شكل ثعلب. أصبح شغفي الجديد ينصبُّ على الحيوانات، وكنتُ أفكر بأن أعمل في الطب البيطري، أو في رعاية حيوانات المخابر أو حدائق الحيوان. كانت كاسي قد ساعدت أبي على إعداد المائدة وتزيينها بترتر صغير ذكَّرني على نحو غريب بغبار النجوم. كان كل شيء تاماً حتى الرسالة التي طويت أربع طيات، والتي احتفظتُ بها بعناية في جيب بنطالي. كنت أنا وأبي قد عثرنا عليها داخل صندوق الرسائل، في صباح اليوم نفسه، عندما استيقظنا. رسالة محاطة بريشات صغيرة بيضاء.

*يا كنزي،*

*اليوم أصبحت في السابعة من عمرك. سبع سنين على هذه الأرض. سبع سنين من الاكتشافات والدهشة. كتُبُ الكبار، المضجِرة جميعها، التي كنتُ أستعين بها أثناء فترة حملي، تقول بأن الطفل في عمر السابعة، يغادر «طفولته الأولى» لكي يدخل في «سن العقل». أ تريد رأيي، يا كنزي؟ لا تُقدِم على هذا أبداً!*

*اشبِكْ إصبعيك وأنت تطفئ شموعك بعد قليل. فمن شأن ذلك أن يحمي من السوء. يمكنك البقاء والتنعُّم في دفء الطفولة، فتقفز فوق سريرك، وفي برك الماء، أو تلهو مع زملائك بلعبة ظَهر الخَروف[1]*

---

(1) تسمى أحياناً بالعربية، لعبة التدبيح أو القفْزيّة، لعبة للصغار تتمثل في يقوم أحد المشاركين بإحناء ظهره إلى الأمام على شكل جسر، لكي يقفز الآخر من فوقه، ثم يعود الأخير ويحني ظهره بدوره، لكي يقفز الأول من فوقه، وهكذا، على التوالي. عدد المشاركين في اللعبة، غير ثابت.

*اشبِكْ أصابع قدمك أيضًا... فلا أحد يعلم ما الذي يمكن أن يحدث!*

*في هذا اليوم المميز، حطّت بعض طيور البوم الثلجية على شرفتي بالطابق العلوي لأعلى الأبراج. تركت وراءها بعض الريش، جمعتُها لكَ، وتجدها هنا.*

*حافظ عليها بحرص مع كنوز أورانوس الأخرى، التي سبق أن تلقيتَها.*

*أشتاق إليك شوقاً لا حد له.*

*أمك.*

*صانعة النجوم.*

في ذلك اليوم كان الجوّ مُشبعاً بالضوء والألوان. كان جدي يرتدي كنزة زرقاء سماوية، لذلك لا خوف من أن يتسبَّبَ بتلاشي ألوانِ ذلك اليوم. جدتي هي التي تولّت إشعال الشموع ووضعها فوق كعكة الثعلب المصمَّمة لأجلي. أخرجت كاسي هاتفها المحمول لتخليد تلك اللحظة. حرَّكَ كل من جدي وجدي كرسيه إلى الأمام، لكي يستطيعا رؤيتي بصورة أفضل. كنتُ على وشك أن أفعل ما طلبتْهُ أمي، وأشبك إصبعيّ خلف ظهري، عندما حدث ذلك. شيء يشبه الدويّ في رأسي، يدفعني إلى رفض البقاء في الطفولة. شيء ملحٌّ وعاجل. حالة من الجزع، ورغبة عارمة في حسم الشك باليقين. تراقَصَ لهبُ الشموع، ووجهُ جدتي ينتظر مبتسماً:

«إذن، يا عصفوري الصغير، ألن تطفئ الشموع؟»

خرجت الكلماتُ التي ستُغيّر كل شيء، وتُبعدني عن أبي إلى الأبد:

«أمي ليست على أورانوس...أليس كذلك؟»

بدا الأمر شبيهاً بسؤال ورجاء في آنٍ واحد. لم أكن أعرف ما الذي أرجوه حقاً: الحقيقة أم الكذبة. كذبة تطول أكثر قليلاً، بضع سنين أخرى.

«ماذا؟» تلعثمَ أبي.

لبث جدي وجدتي لأبي يحدقان إلى الشموع، عاجزين عن الكلام، مرتبكين. مال الجد برأسه نحو يديه وراح يعاين أظافره. ابيضَّ وجهُ أبي من شدة الشحوب. بدا بلون الدقيق. خرج صوتي مجدداً:

«أمي ماتت، مثل ديسيبل».

هذه المرة، لم يعد ذلك سؤالاً. كان الانفجار صامتاً، لكنه لم يكن أقل عنفاً. أطبقت الجدة بيدها على فمها، وكتمت شهقة. كان ذلك هو الصوت الوحيد الذي سُمع، فيما أطبق الصمتُ على الآخرين. الطيور وحدها كانت تغرد في البعيد.

«أمي في صندوق تحت الأرض مثل ديسيبل.»

أفلتت كاسي هاتفها المحمول على الطاولة بحركات بطيئة، ثم سندت بيدها كتف أبي، الذي انكمش عدة بوصات، وكبر في السن عدة سنوات. كانت هي السنَد. تماماً كما في يوم وفاة أمي. مرة أخرى كانت كاسي هي صخرتُنا.

«نعم يا حبيبي. نعم يا آرتورو. لقد ماتت أمك.»

لم تسعَ إلى خداعي، ولم تحاول تجميل الأمور بكلمات أكثر حلاوة. لم تقل رحلت أمك. لم تقل رحلت، أو انطفأتْ، أو حلَّقت بعيداً. قالت الكلمة الباردة: *ماتت*، وهو بالضبط ما كنتُ بحاجة إليه.

اقتربت مني، ولفّتني بذراعيها الدافئتين، ذراعَيْ عملاقٍ حجري، لكنني دفعتُها بعيداً. دفعتهم جميعاً، صارخاً:

«يا عصابة الكاذبين! أكرهكم!»

لم يرني أحد أغادر. كنت قد هربت عندما زال عنهم جمودُ الصدمة، واستعادوا الحركة. لم أطفئ شموعي السبع. قطعنا الكعكة لاحقاً، وسط الصمت والنشيج الصامت. أرغمنا أنفسنا على تناولها، دون رغبة. لم أبلغ السابعة أبداً. لا داعٍ لشبكِ أصابع اليد أو القدم. بقي جزء مني عالقاً إلى الأبد في طفولتي. في ذلك اليوم ماتت أمي حقاً.

لم يجد أبي ما يقوله بعد ظهر ذلك اليوم. ولم يجد ما يقوله لاحقاً أيضاً. هذا ما دمَّرَنا. تحدثت كاسي معي. كاسي وإلى حد ما، جدتي أيضاً، في الأوقات القليلة التي كانت فيه دموعُها تتوقف عن تلوين خديها بخطوط زرقاء أو خضراء أو بنفسجية. كان مرضاً. مرض خطير لم يستطع الأطباء أن يفعلوا حياله أكثر مما فعلوه. ماتت وهي نائمة، وهي تحلم. لم تشعر بشيء. في وقت لاحق من ذلك الربيع، أخذوني لرؤية قبرها. لوح حجري أبيض بين ألواح أخرى مصفوفة. فوقه وُضعت تذكارات صغيرة، وبعض الزهور، وصورة لأمي ملتقَطة في فصل الصيف. شعرها مثل ألسنةِ لهب، وبشرتُها وردية، وتحت ذقنها، رأسُ طفلٍ، أصلع.

«لأن كلاريس بدون آرثر ليست كلاريس. هي التي اختارت هذه الصورة»

كانت جدتي تبكي دافنةً وجهَها في شعري، وكانت كاسي تقبِّل كتفي، وأنا أقف هناك، مذهولاً، أمام لوحِ الحجر، أمام الصورة. لم يبدُ لي هذا كلُّه أكثر واقعية من أورانوس، وشجر الأيائل، وقصر الجليد، ولوحة الكون العظيمة.

لم يجد أبي ما يقوله، لكنه استمر في إيصال الرسائل، وإيداعها في صندوق البريد الصدئ. مع ذلك، لم يعد شيء كما كان من قبل، ولم يعد يقرأها لي. كنت قد تعلمتُ القراءة. ثم أصبحتُ أكرهه. كنتُ أتظاهر بأنني أتخلص منها دون أن أفتحها، في سلة المهملات بغرفتي. وعند حلول المساء، أعود وأستخرجها منها.

كنت أقرؤها في ضوء مصباحي الصاروخي، أدي وجهي بسترتها التي أخذتها من خزانتها، محاولاً استحضار ذكرى رائحة أمي الزهرية.

تكدست الرسائل في خزانتي، خلف ثيابي. ورغم الغضب، ورغم الحقيقة التي أصبحتُ أعرفها، استمرت الكنوز تصلني وتنتشر فوق مكتب طفولتي.

ثم بلغتُ الرابعة عشرة. وقع جدالٌ سوقيّ بيني وبين أبي لأنني لم أخبره بحقيقة ما جرى في المدرسة. كنت قد استدعيت إلى مكتب المدير، بسبب توقيع مزور. في ذلك المساء، راقبتُه في المطبخ وهو يرغي ويزبد وقد احمرّ لونه. كان شعره قد شاب، وقسَتْ ملامحُه. ما بيننا من الضغينة كان أكثر من الحب. فكرتُ بأنه لم يعد لديه سوى شيء واحد، هو التوبيخ والتسلط. تلك كانت طريقته الوحيدة للتواصل. ذلك كل ما تبقّى لنا.

عندها، بدأتُ أصرخ بدوري. تلفظتُ بأشياء شنيعة، وأطلقت أشكالاً من الاتهام واللوم. تقيأتُ غضبي وألمي. لم يعد لشيء من كل ذلك علاقة باستدعائي إلى مكتب المدير.

«لقد كانت كاذبةً قذرة، أما أنتم، فإنكم وحوش! أبعدتموني عنها وهي تحتضر! أخفيتم عني قبرها!»

فجَّر الهياج كل شيء: تطايرت الثياب، وتطايرت الرسائل، وتحطم مصباحي الصاروخي على الأرض. لم يحاول أبي إيقافي. تركني أكسر وأرمي وأسحق الأشياء دون أن ينطق بكلمة. إلى أن أشعلتُ نار ابتهاجٍ في الحديقة، لكنها نار لا تحمل ذرةً من الابتهاج، وليس فيها سوى المعاناة والضيق والوحدة. عندها سحبني بعيداً بقوة، وحاول أن يطفئ النار، وأن يستعيد الرسائل التي لم تشتعل بعد، أو التي لم تحترق تماماً. كنتُ أبكي. كنتُ أوجِّه اللكمات إلى جذع شجرة القيقب الفضية التي لم تستطع قط أن تصبح شجرة موسيقى. حتى نزف الدم من يدي.

في وقت لاحق، جاءت كاسي، بناءً على اتصالٍ من أبي. كان سيمون يرافقها.

أمسكتني من كتفي، وكلمتني بهدوء، مقترحةً أن أقيم في بيتها لبضعة أيام. في ذلك المساء، في صالونهما الصغير المليء بالنباتات المنزلية، أعلنت لي بصوت مرتجف: «أنا حامل يا آرتورو. سيكون لك ابن خالة.»

كانت تبكي، ولم أعد أذكر السبب: هل كانت تبكي من أجل رسائل أمي المحروقة، أم من أجل قبضتيّ الملطختين بالدماء، أم من أجل الوحدة التي يعاني منها أبي، أم من أجل هذا الخبر السار.

«هل... هل يتحرك؟» سألتُها بصوت خافت.

«لا. ليس بعد. إنه بحجم حبة أرز.»

حبة الأرز، هو الذي نجح في تهدئتي.

اليوم، أتمَّ نوح سنته الرابعة عشرة. بلغ طوله متراً وأربعاً وسبعين سنتيمتراً، ويرتدي حذاءً من قياس أربع وأربعين. ومع ذلك، ما زلت أسميه: حبة الأرز. كنا جميعاً مَدينين له بالامتنان. لقد أعاد إلى عائلتنا،

شعلة من الألق. يمارس نوح رياضة الـ skateboarding[1] ويستمع إلى موسيقى الراب، وله شعر طويل، ويستخدم تعبيرات تجعلنا جميعاً نشعر بأننا تقدمنا جداً في العمر. ومع ذلك، حتى مع وجود نوح بيننا، بوقع كلماته، وضحكاته وسقطاته المدوّية، بقي الصمت هائلاً بيني وبين أبي.

(1) رياضة التزلج في الطرقات على لوح صغير مزود بعجلات.

# 21

## الحاضر

كان الأسفلت دافئاً تحت ردفيّ، وسواد الليل يلفُّني. كنت أشعر هناك بالارتياح. أضواء الشوارع القليلة والبعيدة تُلقي بهالات صفراء على الأسفلت. جلست على الأرض مباشرةً، تحت إحدى الأشجار القليلة في موقف السيارات، التي تنمو في حماية إطارات من الخرسانة. لم أعد أرى حتى نوافذ المستشفى، المُضاءة، ولا أبواب غرفة الطوارئ الزجاجية التي تُفتح وتُغلق بلا توقف. انعزلتُ في عالمي الخاص. مُتكوراً على نفسي، أتنفس بشراهة كما لو أن أنفاسي كانت محبوسة لفترة طويلة. كان الهاتف، الذي لا زلتُ ممسكاً به، يشير إلى الثانية صباحاً وخمس وأربعين دقيقة. رسالة أبي، التي بقيت بدون رد، لا تزال تسألني: *هل الأمور بخير؟*

نهضتُ عندما سمعتُ صوتاً يُناديني. صوت امرأة ذات نبرة مُتوترة بعض الشيء.

«سيدي؟ يا سيد ديشومان؟»

كانت تقترب، بالمئزر الأبيض، وقلنسوة الرأس. قالت لزميلتها:

«ربما ذهب إلى الحمام. تحققي!»

كنتُ على بُعد خطوات قليلة منهما، ألهث خائفاً.

«أنا هنا! هل حدث شيء لـ أنيتا؟ ما الذي يحدث؟»

«اتبعنا يا سيدي.»

«هل كل شيء على ما يرام؟»

«أجل، لكن عنق الرحم قد اقترب من التوسُّع التام. من الأفضل أن نسرع.»

«توسع تام... هذا يعني... هذا يعني أن...»

«أن ابنتكَ الصغيرة ستكون هنا خلال دقائق.»

ابتسمتا لي وهما تحثّاني على التحرك، واللحاق بهما. في المصعد، كتبتُ رسالة قصيرة لأبي. «*كل شيء على ما يرام. إنها على وشك الولادة...*

فقدت أنيتا لونها وصفاءها. جلست مستقيمة فور دخولي من الباب، وانبرت تصرخ:

«أين كنتَ؟ كانت ستفوتكَ اللحظة! أين ذهبت؟»

تشبثت بيدي، وشدَّتها بكل قوتها. الشيء الذي قرأتُه في عينيها، كان رعباً.

«أنيتا، يا عزيزتي، الأمور بخير. كنتُ فقط في الخارج، أستنشقُ الهواء.»

انقبض وجهها، وأسرعت القابلتان للإحاطة بها على الفور.

«هل أنت بخير يا سيدتي؟»

«أريد أن أغيّر وضعيتي!»

«هل تشعرين برغبة في الدفع؟»

لم تُجب. لا بد أن هذا يعني نعم. أسرعت المرأتان، ووضعت كل منهما ذراعاً تحت إبط أنيتا، رفعتاها، وساعدتاها أن تستلقي على جانبها، بحيث تبقى إحدى ساقيها مرفوعة فوق وسادة طرية. وقفتُ عند رأسها، ويدي تحت مؤخر عنقها.

«أنا هنا، الأمور بخير. لم أُلاحظ مرور الوقت، لكنني هنا الآن.»

سالت دموع على خدي زوجتي. أنيتا، شعاعُ شمسي. أنيتا التي تُذكرني ابتسامتُها كل يوم بابتسامة أمي وخالتي كاسي، ابتسامة تُضفي ألوان قوس قزح في منتصف يوم كئيب. لديها تلك الطاقة نفسها، ذلك الحب الجارف نفسه للحياة. أنيتا التي كانت تخترع أغاني تُدندنها لقطتينا، للطيور في الشرفة، لنباتات بيتنا الخضراء، ولبطنها المُكوّر. إنها مثل أمي. في عينيها بريق من أشعة الشمس.

«أنيتا، هل أنت بخير؟»

مسحتُ عن وجهها القطرات المالحة.

«ماذا هناك؟»

«أنا خائفة.»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«خائفة؟»

«أخشى ألّا أتمكن من...»

لم أدعها تكمل. همستُ لها:

«لا.. لا تكملي. ستسير الأمور على ما يرام.»

تحركت القابلتان، رفعتا الملاءةَ عن ساقي أنيتا. انحنيتُ بحيثُ أصبح وجهي في مستوى وجه زوجتي. أمسكتْ يديَّ بين يديها، وشدت عليهما. رأيتُ نفسي أقول كلماتٍ بدت لي جوفاء حقاً:

«لا تخافي يا عزيزتي. أنا واثق من أنك تستطيعين القيام بذلك. خطرت لي فكرة، أتعلمين؟ غداً، عندما تأتي، سأشتري لكِ بعض الزهور. زهور يمكنكِ رسمها. أيّ نوعٍ تُفضّلين؟»

«ما معنى هذا الكلام الآن؟»

أخذت تلهث، تتنفس بصعوبة، بسرعة كبيرة، دون أن تُشيح بنظرها عني.

●

«زهور الزنبق؟ الغلايول؟»

«أضاليا.»

«حسناً، أضاليا.»

أومأت إحدى القابلتين برأسها لي مستحسنةً. ووجَّهت زميلتُها الكلام إلى أنيتا بهدوء ولطف:

«حسناً يا سيدة ديشومان. صغيرتكِ اقتربتْ. يمكننا رؤية فروة رأسها. إنها مكسوة بالشعر.»

ابتسمت أنيتا من بين دموعها، وهي تغصّ بالبكاء، ونظرت إلى عينيّ لتتأكد من صحة كل ما قيل.

«هل اقتربتْ؟»

«إنها مسألة دقائق، قالت القابلة. بعد الانتهاء من الدفع. هل أنت مستعدة؟»

نظرت أنيتا مجدداً إليَّ نظرةَ استشارة. قرأتُ في نظرتها، جسامة اللحظة، والرعب المكبوت، ولكنني قرأت فيهما أيضاً القوة والعزيمة الحيوانيتين، الجبّارتين، المتوارثتين عن الجدّات. قوة حياة، فائقة، من زمنٍ منصرم. في تلك النظرة، أدركتُ أن لا شيء سيعود كما كان أبداً.

*«كنزي، يا نجمة ليالي»* كتبت أمي ذات يوم. *«لا يمكن للبريد أن يصل إلى أورانوس، بسبب تعارُض تيارات المجرة. إذا أردتَ أن تتحدث معي، إذا احتجتَ أن تبوح لي، فقط أغمض عينيك وفكّر بي. سأسمعك دائماً. سأبتسم لك دائماً. سأكون بجانبك دائماً.»*

هذا هو جوهر العلاقة بين الآباء والأبناء. لا يعود من حقك أن تفشل أبداً. لا يعود من حقك أن تختفي أبداً. وعليك، ربما لأول مرة، أن

تخاف على حياتك. أن تحيا من أجل شيء آخر غير نفسك، من أجل شيء عظيم، هائل، سوف يتجاوزك دوماً. سوف ينيرك دوماً.

كانت صغيرة جداً، حمراء، تتلوى وتهتز. ذكّرني صراخُها بالمواء. كانت عيناها تتشبثان بالعالم. أدركتُ الأمر في تلك اللحظة. فهِمتُه. بوصفه أمراً بديهياً، بوصفه حقيقةً كونية.

وضعتْها القابلة على جذعي، فالتقطتْ يدُها الصغيرة أحدَ أصابعي. نظرتُها التي تحمل علامةَ اللا متناهي، أخبرَتْني بما كان يجب أن أعرفه من قبل، وما اكتشفتُهُ الآن فقط. قالت لي بأنني أصبحتُ الآن أباً، وبأنني، إذا لزم الأمر، ودون ذرةٍ من التردد، مستعد للموت من أجلها. قالت لي بأنني مستعد من أجلها، أن أخترع حياةً على أورانوس أو بلوتو أو المشتري، وأن أستنبت أشجار أيائل، وأخترع حلزونات قطبية، وأصمم قصور جليد، وأتخيل آلافاً مؤلفة من الأكاذيب الرائعة. من أجلها، من أجل أن تكون سعيدة. سأُمضي الليالي في ملء صفحات من الورق بخطّي، لكي لا تنساني، لكي أكون بجانبها كل يوم، حتى وأنا بعيد عنها. من أجلها سأحوّل نفسي، دون ذرة من الشك، إلى صانع نجوم.

وإذا متُّ يوماً، إذا وقعت هذه المأساة مجددًا، فسأعمل على أن تكون بعيدة عن إدراك هذا، سعيدةً وهانئةً، تقف أمام بحيرة، في اليوم الذي أحتضر فيه، وتقذف الحجارة في مياهها الراكدة، تحت السماء الزرقاء. فقط كي لا يمس قبلها النقي حزن.

أغمضت عينيّ بقوة، ويد ابنتي الصغيرة بين أصابعي، وكلمت أمي في نفسي، كانت تلك هي المرة الأولى التي أكلّمها فيها منذ سنين طويلة:

*شكراً يا أمي. صانعة النجوم.* ثم أضفتُ: *أحبكِ حباً لا حد له.*

# 22

## اليوم الذي محوتُ فيه الجدار بيني وبين أبي

كانت زهور الأضاليا موضوعة في إبريق ماء على طاولة سرير أنيتا، لكن زوجتي لم تكن ترسم الزهور. بل بالكاد نظرت إليها في الواقع. لم تعد تلتفت إلّا إلى ابنتنا النائمة في مهدها، تحفظ كل تفصيل في وجهها، صوت أنفاسها، شكل قبضتيها المشدودتين، ولون شعرها الطفولي. عندما تتقاطع أنظارنا، تبدو عيناها وكأنهما تسألاني في ذهول: هل أنا وأنت من فعلنا هذا؟

نهضتُ بحركات غير واثقة.

«هل أنتِ متأكدة من أن الأمر لا يزعجكِ؟»

أكدت لي أنيتا مجدداً بأنه لا يزعجها، وأجابت:

«سأخلد إلى الراحة.»

أعلم تماماً بأنها لن ترتاح، وأنها ستدور حول المهد، وتتشمم رائحة ابنتنا.

كان الطقس في الخارج قد أصبح حاراً، حرارة شهر أغسطس، وشغّلتُ جهاز تكييف الهواء في السيارة. مضيتُ في تلك الرحلة وأنا في حالة من الخدر الثقيل، نصفَ واعٍ. رؤيةُ المنزل لم تكن كافية لإيقاظي تماماً. بدا أقل حياةً مما كان عليه آنذاك. واجهاته باهتة، وأبوابه ونوافذه فقدت لونها، وأحواض الزهور بدت هزيلة رغم جهود ماري لإحيائها. لا تزال تلّتي هناك. قلَّ ارتفاعُها قليلًا بفعل الزمن، لكنها باقية، وفي

قمتها، شجرة القيقب الفضية التي لا تُنتج نغمات موسيقية. لقد نَمَت كثيراً حتى بدت وكأنها موجودة هناك منذ الأزل، منذ ما قبل وجود المنزل. تلك هي هذه إذن قوة الدموع؟

عند الباب، تيقَّظتُ للحظة وجيزة، وضعتُ يدي على المزلاج، وطرقتُ الباب دون تراجُع. ثم حبستُ أنفاسي.

كان أبي هو من فتح لي، وقد بدا عليه التعب، مع أن الساعة كانت التاسعة صباحاً، وليست السادسة. كان يرتدي بلوزة بيضاء بالكامل. لم يعد ثانيةً أبداً إلى ارتداء قمصان منقوشة بمربعات. فيكتور بدون قميص المربّعات، ليس فيكتور حقاً. فيكتور بدون كلاريس لم يعد فيكتور حقاً.

«أخبِرْني؟»

حدّق إلي بعينين قلقتين. لاحظتُ يده ترتجف قليلاً على إطار الباب.

«الأمور بخير.»

«أوه، خِفتُ عندما رأيتُك...»

«لقد ولدت في تمام الساعة الثالثة، هذه الليلة.»

«الثالثة...»

مكتبة
t.me/soramnqraa

ابتسمَ بخرَق وارتباك.

«الساعة الثالثة، إنها ساعةُ خير ...»

ابتسمتُ له بدوري، وقد اعتراني قدر مشابه من الارتباك. لم يعرف ماذا يضيف. أخذني إلى الداخل. كانت ماري في الصالون، ترتدي فستاناً صيفياً بلون برتقالي فاقع.

«آرثر! هل حملتَ لنا خبراً جيداً؟»

عانقتُها. كان ينبعث منها عطر يذكرني بزنبق الوادي، الطازج، السكّري.

«تعال. ادخل. سنعد لك قهوة. كيف حال أنيتا؟ والمولودة؟»

انشغلت ماري فوراً بوضع الماء في فيلتر آلة تحضير القهوة، أخرجت فناجين من خزانة الحائط. بقي أبي في الخلف.

«إنهما بخير. الطفلة والأم.»

على الثلاجة، صورٌ مصفرة قليلاً لي ولأمي وأبي. وتظهر خلفنا، الكثبان الرملية وزهور الخلود ذات الرائحة المسكِرة. إنها صورُ آخر صيفٍ لنا كثلاثي... في الصور الأحدث تظهر كاسي وسيمون ونوح على شاطئ البحر. وفي هذه تظهر ماري وأبي في الحديقة. وتلك الأبعد، الجد والجدة يحملان نوح وهو طفل رضيع، بين ذراعيهما. توفي الجد أيضاً. دُفن في قبر مجاور لقبر أمي.

«هل أحلّي لك قهوتَك بالسكر؟»

بقي سؤال ماري بلا جواب. التفتُّ إلى أبي الذي لا زال يقف وسط الصالون بلا حراك، مرتبكاً وصامتاً.

«أخبرْني يا أبي...»

هذه أول مرة أناديه بهذا الاسم، منذ سنين طويلة. كنت أتجنب تسميته. وعندما أتحدث عنه، أقول «الوالد» أو «فيكتور»، وعندما أخاطبه، أقول فقط «أنت». شعرتُ بانفعاله.

«نعم، قال بصوتٍ مخنوق.»

«الرسائل... كما تعلم...»

خيَّم صمت. ثم قال من جديد، دون قدر كبير من اليقين:

«نعم.»

توقفت ماري، خلفنا، عن تحضير القهوة.

«هل تمكنتَ من إنقاذ شيء منها؟»

بذل جهداً لكي يوقف يديه عن الارتعاش. ولكن بدون جدوى.

«نعم، شيء منها. هل... هل تريد استعادتها؟»

أومأتُ برأسي. يبدو أن العالم أخذ يستعيد أنفاسه.

«تعال»، قال أبي.

تبِعتُهُ إلى غرفته، تلك التي كان يتشاركها آنذاك مع أمي، والتي يتشاركها الآن مع ماري. لقد أعاد طلاء الجدران باللون البيج. علّقت ماري هناك نُسَخاً من لوحاتٍ لفان جوخ. لوحات أزهار، وحقول. فتح أبي أبواب خزانة الملابس، ومد يده لالتقاط صندوق كرتوني صغير، من خلف الأحذية، ووضعه على السرير. لم أجرؤ على الجلوس. اسمي الأول مكتوبٌ على الصندوق. آرثر، بخط أبي الكبير.

«ها هي.»

رفع الغطاء، وأمسك برزمة من الأوراق المتفحمة قليلاً. بعضها اسوَدَّ بالكامل تقريباً، والبعض الآخر لا يحمل غير آثار طفيفة من الحروق.

«هذه هي التي أنقذتُها تلك الليلة.»

لكن عينيّ ما عادتا تفارقان الصندوق. لا تزال فيه كدسة أخرى. كدسة من رسائل سليمة، محفوظة داخل مغلفات ملونة ومبهجة، مزينة بزهور نفل ونجوم وقلوب.

«هذه هي المجموعة الأخرى من الرسائل،» قال لي أبي.

«المجموعة الأخرى؟»

«لقد خططت أن تبقى الرسائل تصلك حتى تبلغ الثامنة عشرة. أُعِدَّت الأخيرة لكي تصل مع صدور نتائج البكالوريا. وهي رسالة تهنئة

مع سوار ذهبي جاهز لكي يُنقَش عليه لاحقاً. كانت تأمل ألا ترسب في البكالوريا، وإلا فإن الرسالة لن يتم إرسالها...»

تلاشت ابتسامة أبي. شعرتُ بدموعي التي انهمرت في الليل تعود كالسيل خلف جفني. رسائل أمي في متناول يدي. خط يدها على المغلف. مشاعر هذا الصباح الغريب.

«قل لي، هل... هل أستطيع أخذها معي إلى المنزل؟»

«بالتأكيد. لقد كُتبت لأجلك...»

تحققتُ من أن الغصة في حلقي لن تعيقني قبل أن أقول الكلمات التالية:

«أود أن أريها إياها عندما تكبر. أود أن...»

تكسَّرَ صوتي. سالت بعض الدموع، من عيني، ومن عيني أبي أيضاً. أنا آرثر، الطفل الصغير، أقف أمام تلسكوبي، وأبي هو أبي، يقف بجانبي منتصباً، مهيباً، وقوياً.

«ذات يوم، سوف تريد حتماً أن تعرف من أين جاء اسمُها.»

اضطربت الرؤية أمامي بسبب الدموع، لكن ذلك لم يكن بالشيء المهم. الشيء المهم كان في مكان آخر.

«كلاريس. اسمها كلاريس كبُّوسين ديشومان. سأخبرها بأنني سميتها على اسم جدتها، اسم صانعةِ نجوم.»

مزق نشيجُ أبي فضاء الغرفة، وفهمتُ بأنني نجحت. لقد تفاديتُ مصيراً سيئاً، بمساعدة كلماتي، أو بفضل ممحاة الكون، السحرية العظيمة. نجحتُ في محو الجدار بيني وبين أبي. بهذه السهولة: بضع كلمات، وشيء طفيف من السحر.

انتهت

ميليسا دا كوستا، اثنان وثلاثون عاماً، فازت بجمهورها من خلال روايتها الأولى، *كل أزرق السماء*. ثم فرضت نفسها كمؤلفة لا يُستهان بها. رواياتها الخمس الأخرى، *الأيام التي ستأتي*، و *عدتُ من الآخرين*، *وآلام الأشباح*، *والوجه الخفي*، *ونساء من نهاية العالم*، هي أيضاً روايات حققت أكبر نسبة مبيعات، وحازت على عدد من القراء يفوق المليونين.

# اليونيسيف

لكل طفل أرض نحافظ عليها
لكل طفل الحق في الحياة، وعلى الدولة ضمان بقاء الطفل ونموه، مع الأخذ في الاعتبار مخاطر تلوث البيئة الطبيعية.

المادتان 6 و 24 من الاتفاقية العالمية لحقوق الطفل
الصحة الجيدة لكل طفل
من حق كل طفل أن يحصل على مستوى معيشي لائق وأن يتمتع بأعلى مستوى صحي يمكن بلوغه.

المواد 24، 25، 26
من الاتفاقية العالمية للطفل
ماء صالح للشرب لكل طفل
من حق كل طفل أن يحظى بالحماية والعلاج من الأمراض، وتناول ما يكفي من الطعام والشراب لكي ينمو بصحة جيدة.»

المادة 24
من الاتفاقية العالمية لحقوق الطفل.
المدرسة، لكل طفل

يجب أن يكون التعليم الابتدائي، القائم على مبدأ تكافؤ الفرص، إلزامياً ومجانياً، والتعليم الثانوي متاحاً للجميع، مع احترام كرامة الطفل.

المادتان 28 و 29
من الاتفاقية العالمية لحقوق الطفل
لكل طفل أن يكبر بأمان
يحق للأطفال أن يكبروا في وسط يؤمن لهم الحماية.»

المواد 19، 22، 32، إلى 40
الاتفاقية العالمية لحقوق الطفل

مكتبة
t.me/soramnqraa

## ميليسا دا كوستا

# صانعة النجوم

كان آرثر في الخامسة من عمره عندما كشفت له والدته، كلاريس، سرًا عظيمًا: أنها ستنطلق قريبًا في رحلة طويلة إلى كوكب أورانوس؛ وهناك، كما توضح كلاريس، ستعيش في ذلك الكوكب المتجمد ذي السبعة والعشرين قمرًا، المأهول بقواقع أصدافها زرقاء، تتغذى على البقدونس القطبي الثلجي، وأشجار تتدلى من أغصانها أجراسها الرنانة، والعديد من المخلوقات العجيبة الأخرى.

بعد سنوات عديدة، ينتظر آرثر ولادة ابنته الأولى، ويجد نفسه يسترجع ذكريات أمه وتلك الحكاية الخيالية.

يعلم أن الكون السحري الذي وصفته أمه كان حيلة من أم لتشرح لابنها انفصالاً وشيكًا، وأبديًا. كذبة رائعة أتاحت بها للطفل أن يحلم ويتخيل، بدلاً من مواجهة الواقع، ولو لفترة.

تعود ميليسا دا كوستا بقصة حلوة ومؤثرة، وتثبت يخفّة قلمها مرة أخرى أنه لا يوجد أقوى من الحب لعلاج الجروح العميقة، وأن القدرة على اختراع القصص هي الأداة الأكثر استثنائية لمواجهة آلام الواقع.

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات وسم